مي عباس

سترونج إندبندنت بسكوتة

حكايات شبهنا

ملهمون

لكل جديد وقديم وكل ما هو نادر
من من كتب ومجلات ومجلدات

تابعوا موقعنا
#دوده_الكتب

اضغط علي اي جزء من الصوره
للدخول الى الموقع

لكل جديد وقديم وكل ما هو نادر
من كتب ومجلات تابعونا

t.me/book100100

book100100

سترونج إندبندنت

بسكوتة

سترونج إندبندنت بسكوتة

ميّ عبّاس

المقدمة

كم مرة وضعتك الحياة في اختبار الضعف والقوة، العقل والقلب، المفروض والمرفوض؟ كم مرة اضطررتِ للاختيار بين أجزاء روحك، وألوان شخصيتك، نجاحك المِهْنِي أم الأسري؟ الاستقرار، أم الحرية والاستقلال؟ صناعة المجد أم اللهو؟ الزواج أم الوظيفة؟ التبعية، أم النِّدِّية؟

كم مرة انتحرت الأحلام، وتقزّمت الأهداف، وتقوْلبت نفسك على مقاساتِ العيب والتقاليد، ونظرة

الناس، والخوف المُبهم؟ كم مرة رفضت أن تكوني «بسكوتة» لتحميَ قوتك، واستقلالك؟ وكم من العُمر مضى، وأنتِ لا تتصوَّرين نفسك «استرونج إندبندنت»؛ لأنك كنت دايمًا بسكوتة لذيذة لطيفة هشّة؟ هل خفت على كيانك من الحب؟ أم ضحَّيت بذاتك من أجله؟ هل قبلتِ لتعيشي، أم لا تعيشين إلَّا بما تقبلينه؟

حسنًا أيتها الحياة، قد نضطر أحيانًا للاختيار، ولكن الكثير من اختباراتك وهْمِيّ، يكفي أن نتغيب عنه، ولا يؤثر ذلك على شيء.

يمكننا أن نختار اختيارًا جديدًا، سترونج إندبندنت بدون كسر البسكوتة، ولا الخجل منها، يمكننا أن

نرفض المساومة على الرِّقّة، والأمومة والفطرة بالشغف، والنجاح والاستقلال.

الحل في قوة الأنوثة، هكذا هي خارقة، تهب الحياة، وتلونها بالرِّقّة والحنان، وتحتمل أقسى أنواع الآلام، وتسلك أذكى الطرق لتحسين العالم.

إجابة تكسر القوالب المحفوظة والخيار الضيق بين «أمينة» المختبئة في ظل سي السيد، و«مسكينة» التي لا ترى الحياة إلَّا حربًا لا هدنة فيها مع الرجل.

في هذا الكتاب ثلاثين مقامة ولقطة وحكاية نسائية، حقيقية جِدًا، بأشخاصها وأحداثها ورمزيتها، حرَّة في صياغتها، ولغتها.

الفهرس

أوَّلًا: المقامات:

بقايا جاهلية 11

أهوال بيت العائلة 31

أرملة حي 49

الرجل العادي VS الباد بوي 65

أخو البنات 83

شرف آيل للسقوط 89

سترونج مش إندبندنت 111

كلاس بيلي دانس 117

اجتماع مجلس آباء 127

ملوخية أم محمود 147

ثانيًا: الحكايات:

أنضف بيت في المجرَّة 157

جارية بعقد زواج 163

خيانة امرأة مثالية 169

عقدة بالوراثة 177

ماذا لو تبقَّى من عمرك عامٌ واحدٌ؟ 181

187

الحلم يتجسَّد من جديد

أرجوك اكسر تمثالي! 191

خارج مملكتي يبحث عني 203

تعازينا المولود أنثى! 209

زوج نكدي جِدًّا 213

ليلة رومانسية 217

طفلة في الأربعين 221

الأقطاب المختلفة 225

مقبرة الإباحية 229

ثالثًا: اللقطات:

لست سلعة وليست الحياة سوق نخاسة 237

مدام سعاد بتاعة الفيش والعامرية 241

بين الكيميا والتاريخ 245

فريند زوون 247

بحيرة الزن 249

هجمات الجسم الزجاجي 251

أوّلًا: المقامات

بَقايَا جاهِلِيَة

شبرا 1998م

حلاوتها في ابتسامتها. منى.

والفرح زاد حلاوتها. منى.

يلّا غنوا لها، قوموا وقولوا لها.

أتمنى ليكي في الدنيا. مني.

فرح وهنا وذرية. منى.

ذرية بس صالحة، أحمد خديجة طلحة.

في غرفة مكتظة بالفتيات والنساء يرتدي أغلبهن السواد، أنشدن على وقع الدفّ وحده هذه الكلمات، مع مجموعة من أناشيد الأفراح،

ومعظمها مسروق لحنه من أغانٍ مشهورة مع تغيير الكلمات.

ارتفعت زغرودة مجلجلة ساد بعضها صمتٌ مخيفٌ، قطعته إحداهن موجهة كلماتها لأم العروس: «ليه كده بس يا حاجة، خلّلي بنتك تبتدي حياتها على خير وبركة»!

ردّت أم منى: «وهي يعني الزغرودة إلّلي هتمنع الخير والبركة، هي الزغردوة كمان حرام؟».

أجابتها أخرى بسرعة: «أيوه حرام! ومش معنى إن ناس كتير بتزغرد في الأفراح، أو هو ده إلّلي حضرتك متعودة عليه، إنها تبقى مش حرام، الحرام حرام، «نهيت عن

صوتين أحمقين فاجرين؛ صوت عند مُصيبة، وصوت عند فرح».

احتدّت الأم وقالت بانفعال وهي تغالب دموعها: «يعني مش كفاية ملبستوهاش أبيض، لابسة غامق في فرحها، وكلكم لابسين إسود، كمان هتطلعوها من غير زغاريد، ليه فرح ده ولا ميتم؟!».

همَّت الأخت أن تردّ قبل أن تتدخّل أخرى أكبر سِنًّا، وتسكتها قائلة: «معاكي حق يا حاجة، أوَّلًا الحديث ده في صحته كلام يا أم مصعب، وحتى لو ثبتت صحته فهو على المزامير والمعازف، وأنا هزغرد لمنى أهو».

وأطلقت زغرودة، ثم شدت أم مصعب من ذراعها موبِّخة بصوتٍ هامس: «هتفضلي متسرعة كده لأمتى، مش قلتلك ألف مرة ليس كلّ ما يعلم يقال، ولا كل ما يُقال حضر أهله، ولا كل ما حضر أهله حان وقته، خلّي منى تطلع على خير».

قامت منى لترضية أمها، وعلا صوت الدف مجدّدًا، ومجموعة من الفتيات أنشدن نشيدًا مسروقًا من أغنية للمطربة عايدة الشاعر كانت في الأصل: «كايدة العزال أنا من يومي»، فأصبحت: حابّة الإسلام أنا من يومي. إيوه آه.

قالوا لي لما لبست نقاب. إيوه آه.

قالوا لي طفَّشتِي الخُطاب. إيوه آه.

قلت نصيبي هيجيلي عالباب، وأنا من يومي.

حابَة الإسلام أنا من يومي.

ثم توترت الأجواء مجدَّدًا، وساد همس، وصل إلى منى فتسارعت ضربات قلبها، «مرات العريس جت»!

دخلت إلى الحجرة سيدة لم يُخْفِ خمارُها رشاقتَها، واتجهت بخطًى واثقة نحو العروس بابتسامة عريضة، فقبلتها قائلة: «بارك الله لكما، وبارك عليكما، وجمع بينكما في خير».

بعينين زائغتين، راقبت أم منى المشهد، وقالت بصوتٍ متحسِّرٍ لابنتها

الصغرى: «روحي يا مروة هاتي شربات لضُرَّة أختك».

احمرَّ وجه منى خجلًا، فاستدركت مرات العريس بسرعة: «أختها يا حاجة، لا ضَرَرَ بيننا إن شاء الله».

أما مروة وأختها الثالثة مِنَّة، فقد تبادلتا الحديث الخافت: «ابن المحظوظة مراته الأولانية قمر، ومنى قمرين».

أجابتها: «قمر بس مش بتخلَف، إن شاء الله أختك تخلّف»!

«يارب».

في الشقة المجاورة كان الجيران يستضيفون الرجال، أبو منى يرمق العريس بنظراتِ طويلة، وقلبه يتمزق

بين الخوف عليها، والشعور بالعجز والذنب، مع قليل من الأمل.

تم الزواج، وترافق العروسان على زفة عابرة:

يا سامعين ردّوا عليّا، أفراحنا دي إسلامية.

كان لي صاحب اسمه عمرو، جايب في فرحه طبل وزمر، قالّي يا صاحبي دي ليلة العمر، والمولى يغفرها ليّا.

قلت له أنا اسمعني يا عمرو، مفيش حاجة اسمها ليلة العمر.

لازم يا صاحبي نطيع الأمر، حتى ولو صعب شوية.

يا سامعين ردّوا عليّا، أفراحنا دي إسلامية.

قبل عام

«يا منمن، صباح الفل، جبت لك المجلة». كعادته صباح كلّ سبت، يحضر إليها مجلة حواء التي تعشقها؛ ولكنها في هذا اليوم قبّلته بحبٍّ، وشكرته قائلة: «بقولّك يا بابا، متجبهاش تاني»!

ردّ مستغربًا: «ليه؟ ده انتي بتحبّيها جدًّا».

أجابته: «ما أنا عندي منها كتير، وخلاص بقت بتكرّر نفسها».

ولكنَّ التكرار لم يكن السببَ الحقيقيَّ، ولا كانت «مجلة حواء» وحدها التي تنكّرت لها طالبة آداب الفلسفة، وصديقة أبيها المفضَّلة، لقد كانت في مستهلّ عشريناتها وكأنها تغادر نفسها إلى أخرى، التغيير الجذريّ في مكتبتها قد ينبئ عمَّا اعتمل في عقلها، جمعت كلَّ روايات عبير في كيس قمامة كبير، أكثر من خمسين رواية، لها مع كلِّ واحدة حلمٌ وتقمّصٌ، كلَّ الكتب والروايات العربية والمترجمة، وأعداد حواء التي كانت تقرأها بنَهَمٍ، أشرطة الكاسيت، والإسطوانات التي حملت مجموعاتها المفضلة من الأغاني العربية والأجنبية، أتلفت قدر استطاعتها،

وألقت بها جميعًا في القمامة، لم تكن تتحمّل قبل أشهر قليلة أن يستعيرَ منها أحدٌ شيئًا ولا يعيده، أو أن يعبث في مكتبتها التي حوت أفكارها وأحلامها؛ ولكنها صارت تخاف أمرًا آخر، أن يقع شيءٌ منها في يَدِ أحدِ «فيصلَ»، أو أن تموتَ تاركةً هذا الإرث، فتتحمّل وزر مَنْ «يفتن بها»، هكذا قيل لها، وهكذا أصبحت قناعاتها.

انتصرت أشرطة شيوخ الدعوة، وكتب التراث، وشروحات المعاصرين، وكتيبات الرقائق، وملازم الفقه والعقيدة، نعم فقد كانت حربًا، ومن نفس منطلق «لا يجتمع مزمارُ الشيطان، وكلام الرحمن في قلبٍ

واحدٍ»، كان عليها أن تختار دومًا، «ولاء وبراء» في مكتبتها، وأفكارها، وعلاقاتها، وقراراتها المصيرية، مَنْ تُوالي، وممَّن تتبرَّأ، فوالت هي ما لمس أصله قلبها، دينها الذي عرفته بشكل جديد، أكثر وضوحًا وحسمًا ومفاصلة، لقد قرأت القرآن، وتفتَّح له عقلها في ظلالٍ رسَّخت في وجدانها حتميَّة التمايز عن الجاهلية، الجاهلية التي تقبع في المعتقدات والسلوك والمشارب في كلِّ زمان ومكان.

أحبَّت الصُّحبة، وحالة الأُخُوَّة النادرة الجميلة، الاحتواء الذي أسكت أصواتها الداخلية، وأجابها عن كلِّ الأسئلة، ولأنَّ المرءَ يُحشر مع مَنْ يحبّ، فكان عليها أن تعدل القائمة

في قلبها؛ ولأن الشبهات تفتك بالعقول، وإذا سلكت إلى الله، فضُمّ أذنك عن شبهات عدوك، فكان عليها ألّا تسمعَ إلّا لحامل حقٍّ، لحامل صَكّ الصواب واتّباع المنهج.

لقد تحطم مفهوم «سعة الأفق» أمام مفهوم آخر عن «العلم الذي لا ينفع»، فلم يكن للعقيدة التدمرية أن تجاوزَ رُباعِيّات الرُّومي، ولا لمعالم قطب أن يصطفَّ جنبًا إلى جنب مع «نبيّ» جبران.

كان عليها أن تصبح نسخة، فما أروع أن تكون نسخة في الخير! وإذا تاقت نفسها إلى التميُّز ففي أبواب محدَّدة سلفًا، أو أن تزيد في صدقها، وتثبت لنفسها، وتري ربها أن كلّ فكرة

باطلة حلّ محلها استسلامٌ وإذعانٌ للحق، وكلّ مقام روّجت فيه لمنكر، كان عليها أن تقوم فيه بالمعروف، وأن تتطهّر من بقايا الجاهلية، وآه من بقايا الجاهلية تلك! في كلِّ حلقةٍ ودرسٍ عامٍّ وخاصّ كانت تدرك خطر بقايا الجاهلية، وهي الآن تعي كم كانت محاطة بالجاهلية! وكم تركت بداخلها من بقايا!

تعَدُّدُ الزّوْجاتِ

جزءٌ من درسٍ للأخَوَات: «تعَدُّدُ الزّوْجاتِ يا أخَوَات شرعُ الله، «وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلَا مُؤْمِنَةٍ إِذَا قَضَى اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَمْرًا أَنْ يَكُونَ لَهُمُ الْخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِم»، وهو شرع الحكيم العليم،

نعم تغار المرأة، ولكن ماذا قال الرسول صلى الله عليه وسلم لأمِّ سَلَمَة، هل قال لها «خلاص ما دمت تغارين، فلا يصلح لك التعدد»؟ لا، بل قال لها: «أما الغيرة فيذهبها الله عنك»، كانت أمنا عائشة تغار، وكان النبي صلى الله عليه وسلم يتحمل ذلك منها؛ ولكنَّ غيرَتَها لم تمنعه من شرع التعدد. التعدد يتعرَّض لهجمات مختلفة، فهناك مَنْ يتهم الإسلام به بأنه أهان المرأة وظلمها، وهناك من هم أخطر، المنافقون الذين يغزوننا من الداخل، من بَنِي جلدتنا، ويتكلمون بألسنتنا، الذين يلوون الشرع ليناسب مقاسَ الكفَّار، الذين يستحون من دينهم، فيغيِّرون فيه

ويفسّرونه بأهوائهم، وبزعمِ أنهم يدافعون عنه من الشُّبُهات، يفترون على الله الكذب، ويزعمون أن التعدُّد ليس هو الأصل، وأنه استثناء يقدَّر بقدر الحاجة، على الرغم من أن التعدُّدَ هو الأصل، وهو الفِطرة، وبه صلاح البلاد والعباد.

المرأة المسلمة يا أخَوات ليست أنانِيَة، وهي تعلم أن الدنيا قصيرة فانية، وقد تشارك المهاجرون والأنصار في كلٍّ شيءٍ بعد تآخيهم، فلماذا تبخلين على أختك الأيِّم؟ وتتركينها فريسة لنيران الفتنة، والشهوات». انتهى المقطع.

عشرات الخُطَب، والكلمات مثل هذه ملأت مسامعها، كان تعدد

الزوجات قضية مركزية جدًا لدى الصحوة السلفية، يركّز الوعي السلفي على فتنة المرأة، ويحاول بكلّ وسيلة أن يحجم هذه الفتنة، فتقرَ في بيتها، وتخفي عورتها التي تستغرقها بالكامل: «المرأة عورة»، ويسعى لتزويجها بالصالحين المؤتمنين على حشمتها وانضباطها، ليرتاح من خطرها العباد، وتستقيم البلاد، وعلى الرغم من شعارات «الدُّرّة المَصونة والجوهرة المكنونة» التي تغازل مشاعر المرأة، فقد كان المحتوى يشيع أن وراء فساد الشباب، وانحدار الأمة، وغلاء الأسعار، وانتشار المنكر تقف المرأة!

معركة جديدة تضطّرم في صدرها، منى التي طالما حملت أفكارًا عن حقوق المرأة، عليها أن تثبت أنها تطهّرت من بقايا الجاهلية، وأنها مستسلمة تمامًا لشرع الله ومراده.

«يا منى، فيه عريس نحسبه على خير، ولا نزكّيه على الله».

اضطّرب قلبُها، وعلى سطح عقلها طافت:

«هُوَ جَنَّتُكِ وَنَارُكِ»، «حُسْن تبعُّل إحداكُنّ لزوْجِها يَعْدِلُ الجِهَادَ».

ردّت مبتسمة: خيرًا يا أم مالك؛ لكن حضرتك عارفة أنا لسّه في سنة ثالثة، وأخاف دراستي تؤثر على مهامّي الزوجية.

أجابت أم مالك بسرعة: إزَّاي بس يا منى؟ ده انتي أعقل أخت شفتها في حياتي، بقى هتخلِّي خزعبلات الفلاسفة التافهين اللَّي انتي بتدرسيهم، والكُفْريات اللَّي مالية كلامهم تعطلك عن الزواج، مينفعش يا حبيبتي: «إذا أتاكم مَنْ ترضَوْن دينَه، وخلقه فزوِّجوه، إلَّا تفعلوا تكنْ فتنةٌ في الأرض وفسادٌ عريض».

قالت منى: «مينفعش مكمّلش يا أم مالك، ده أبويا كان يجراله حاجة».

أجابتها: «لا مشكلة إن شاء اللَّه، تتِّفقي مع الأخ في الموضوع ده، وبعدين ده مش أي أخ، ده أخ يليق بأخت مجتهدة مثلك، وانتي عارفاه كويّس».

علت الحيرة وجهها: «اعرفه؟!»

هي لا تعرف أحدًا منذ عام، ولا تخاطب أو تنظر لأيّ رجل، أو حتى غلام يناهز الحُلم! ابتسمت أم مالك ابتسامة عريضة قائلة: «أيوه تعرفيه، وبتحبيه في الله كمان جِدًا، الشيخ أحمد إمام المسجد اللّي بتحبّي تسمعي دروسه وتصلّي وراه، واللّي كنا استشرناه ساعة أزمة لبسك للنقاب، ورفض أهلك».

أشرق وجه منى: «الشيخ أحمد»! شعرت أنها في حلم، احتلّ الشيخ أحمد على مدار عام نموذج الرجل الصالح في قلبها، لا يمكن أن تصلي وراءه، أو تسمع تلاوته إلّا باكية، كلماته، علمه، آراؤه، سَمْتُهُ، كما أنها

لمحته مرتين ثم غضّت بصرها بسرعة؛ ولكنها تذكر ملامحه وطلّته، كان كما طالما أحبت، كان يصلح لأن يكون بطلًا لرواية رومانسية من رواياتها، لا شيء يمنع سوى لحيته وقميصه، وما المانع؟ ضحكت بينها وبين نفسها، ربّما شاء الله أن يعطِيَني خَيْرَيِ الدنيا والآخرة، فأعيش أحلامي؛ ولكن بشكل يرضيه، فأحظى بالحب مع من يعلمني ديني ويأخذ بيدي إلى الجنة.

انتشلتها أم مالك من أحلامها الوردية، وقالت: «هو أخٌ فاضلٌ، وملتزم بجد، لكن فيه حاجة لازم تعرفيها وانتي بتفكري».

خير!

«هو متزوج».

«ايه؟!»

«بس هوَّا وزوجته متفقين على التعدد، هي بتدور له».

«متجوز!!»

«زوجته مش بتخلف، بقالهم 8 سنين ولم يرزقوا بأطفال، والسبب منها».

«الله المستعان».

«فكَّري، وردِّي عليَّا عشان هوَّا منتظر ردك».

«منتظر ردِّي إزاي، هو منتظر عروسة وخلاص».

«لا يا حبيبتي هوَّا طلب من زوجي أكلمك أنت تحديدًا».

«هو يعرفني منين؟!»

«فاكرة لما استشرناه ساعة أزمة نقابك، أعجب جِدًا بثباتك وشجاعتك، وكمان كان بيصححلك امتحانات الفقه في الدورة الصيفية».

خفق قلب منى مجدَدًا، وقللت «كذبة» الأخت أم مالك من أثر صدمة كونه متزوجًا.

اسْتِسْلام

لم تكن منى ابنتي فقط؛ بل كانت حبيبتي وصديقتي، ترتاح روحي بجوارها، ويسعد قلبي بتألُّقها، ولدت على يَدَيَّ قطعة من القمر، ومنذ نعومة أظافرها ظهر تميزها، قوية ذكية حنونة، ربما لم أكن غنيًا بما

يكفي؛ ولكنني استثمرت عمري في بناتي، وفي منى تحديدًا استثمرت في عقلها، وقلبها وقوتها الداخلية، استثمرت في سعادتها ورضاها عن نفسها.

كانت تعشق القراءة، فجدّدت حبّي القديم للكتب، كنا نقرأ ونتناقش، أحاول أن أجاريها قدر المستطاع، وهي تكبر ويتّسع أفقها، نستمع سويًّا لأم كلثوم ساعة العصاري في البلكونة، أنظر إليها، وأتمنى أن يجود الزمان عليها بكلّ ما حرمت أنا منه. نتمشى سويًا على الكورنيش تحكي لي همومها، ونتشجع في عشر رمضان الأواخر لنصلّيَ التهجد في المسجد القريب، ونعود مع إشراق

الصباح نتأمل في كل شيء، نضحك ونتأثر ونفكر، ونعود للبيت شاكرًا لنعمة الله عليَّ أن وهبني قطعة من روحي تشاركني الأيام.

لا شيءَ مخيفٌ في التديُّن، كنت أعُدُّ نفسي رجلًا متدينًا؛ ولكن ما سارت إليه طفلتي ملأني خوفًا، كانت تتغيّر، فقدت قدرتها على الاستماع والتفهم، صارت أبعد، وكأنها تقاوم كلَّ جميل اعتادته.

لم تكن لديَّ مشكلة مع حجابها، ولا نقابها، كان ذعري من السرعة والحِدّة التي تتغير بهما، حاولت أن أجاريها في النقاش، وحاولت أن تغيّرني كما تغيّرت هي، حتى وصلنا إلى نقطة «سَدّ».

لقد تعقدت مشاعري بالذنب حتى أنني أشعر بالذنب من الشيء وضدِّه، أشعر بالذنب حينًا أنني ربَّيتُها مستقلَّةً قويَّة، وأنني لم أكن الأبَ الصارِمَ الذي يفرض رأيه، وتلومني نفسي، فلو أنني كنت قاسيًا ربَّما لم تستطع فرض رأيها.

ثم يعذبني الذنب أنني ربَّما لم أحمِها بما يكفي، أنني كنت أجهل من أن أقنعها، أو لم أفعل ما يكفي لأؤثر عليها.

أما هي، فقد أشعرتني بالذنب عندما قالت لي: «لا تدعْ حبك لي يسجنني عن عيش حياتي كما أريد وأختار».

لقد حاولت، وفشلت.

قلت لها في أحد حواراتنا:

«لماذا تشعرينني أن الإله الذي نعبده وهو عليم بذات الصدور كآلة صماء، كماكينة المترو التي لن تقبل إلّا تذكرة سليمة، لا تشعر ولا ترحم ولا تعلم، ولماذا كل هذا التركيز على الشكل».

«ليس في الدين قشر ولُبّ، ولو القشر فسد، لفسد اللُّبّ».

«ولكن أين هو اللب، أليس مفترضًا أن تكون أهميته أضعاف أضعاف القشر».

«عن أيّ لبّ تتحدث؟».

«عن الحب الإلهي، ورقّة القلب، وإشاعة المودّة بين العالمين، والرحمة

بالناس، والرفق بالأقربين، ونهم المعرفة، والسير إلى الله بعقلٍ مفتوحٍ، وقلبٍ حيٍّ».

«كلّ هذا موجود؛ ولكنه لا يتعارض مع السَّمْت، والالتزام بالحلال والحرام؛ بل إن علامات صدق الباطن استقامة الظاهر، وإلَّا كان اتباعًا للهوى».

«ولِمَ لا يكون الافتتان بمجموعة، أو اتّباع رأي فئةٍ، والتمَحْوُر حول خلافات فقهية اتّباعًا للهوى؟».

«أيّة مجموعة؟ وأيّة فئة؟ كلٌّ يؤخذ مِنْ قوله ويردّ إلَّا رسول الله صلى الله عليه وسلم».

«وهل كان ميراث النبي عليه الصلاة والسلام الذي لا يُرَدّ مسائل

فرعية، وخلافات فقهية؟ يا ابنتي هذه المسائل لا تصلح لتقسيم الناس عليها، إنها أمور قابلة للاجتهاد، ميراثه الرحمة والبِرّ والخيرُ والعلمُ».

«المشكلة يا بابا إنك مش مقتنع إن الإسلام يجب أن يؤخذ كافة، وأنه صالح لكلّ زمان ومكان».

«أكيد الصالح لكلّ زمان ومكان هو «إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَالإِحْسَانِ وَإِيتَاء ذِي الْقُرْبَى وَيَنْهَى عَنِ الْفَحْشَاء وَالْمُنكَرِ وَالْبَغْيِ»؛ لأن القماش والألوان، وطريقة الكلام ونوع البيوت والعادات مختلفة جِدًّا، ربنا خلق الدنيا متغيّرة، لكنَّ المباديء ثابتة، واللّي حواليكي عاوزين يخلُّوا

العادات ثابتة، بيحاربوا طبيعة الحياة، وبيضيعوا كليَّات الدين».

«ده كلام الجاهلية، وأنا مش عاوزة أتناقش أكتر من كده»!

انتهى الحوار بيننا، واكتفيت بالدعاء لها بالحفظ وصلاح الحال، واستسلمت.

ليلَة الدُّخلَة

عاد ثلاثتهم إلى البيت، دخلوا سويًا إلى منزل الزوجية الجديد، وفي مشهدٍ دراميٍّ مثاليٍّ وقف العريس بين زوجتيه، وقسم تمرة، أعطى كلًّا منهما نصفًا، وربَتَ على كتفيهما قائلًا: أعيناني على العدل، ابتسموا جميعًا،

تركتهما هبة، صعدت إلى شقتها بعد أن دعت لهما بالبركة.

بعد شهر

أجري في نفق طويل شبه مظلم، أبحث عن مخرج، أو مدخل، لا أدري من أين دخلت، ولا كيف سأخرج، وتتردّد من مكان غير معلوم أغنية: I am stranded in the middle of no where يتكرر الحلم نفسه لأكثر من سبع مرات في شهر، كنت قد استسلمت لما قيل لي إنه: «شرع الله»، واعتبرت أن التفكير بمنطقي إثم، فمنطقي مشوب، منطقي قد يكون آثمًا ببقايا الجاهلية القابعة في عقلي، وقد أكملت القصة بخيالي،

وأجبت على الأسئلة المُلِحّة بأحلامي، وقد طافت بعقلي أفكار، كثيرة كأذى أتعرض له، أو غيرة من زوجته الأولى، أو قلة وقت منه؛ ولكن ما كان لم يكن في حسباني.

اتضح لي منذ وقت مبكرٍ جدًا، أنني لم أكن عروسًا جديدة جميلة زاهية، وأن كل مواهبي وطاقاتي لن تفتح قلبه، لم أكن سوى عزولًا اقتحم حياة عاشقين، كنت تجسيدًا لقهر الأيام الذي اضطرهما لإكمال نقصٍ إجباريٍّ، لم يكن كلانا في حسه امرأتين، ولا زوجتين، كانت هي امرأته، وكنت أنا طفلة تعثرت قدماه بها ولا فكاك منها!

ليس ما بي غيرة؛ ولكنه احتراق الحقيقة، فمن وراء الظاهر والشعارات، كان أحمد وهبة زوجين مثاليين، ولولا ضغط والدته، وضغط ثقافة الإنجاب، لقبل انفرادهما، وربما فكّرا أن يكفلا طفلًا، كانت هي سكنه، وقد اجتهد في العدل بيننا؛ ولكن بمفهومه الخاص، لقد قسم بيننا قسمة غريبة، فكنت أنا الولود، وهي الودود!

يختصرون شروط التعدد في القدرة المالية والجسدية، أما الاستعداد النفسي، فيهملونه برعونة متناهية، لم يكن الشيخ أحمد قادرًا على التعدد، رغم شقتيه وتجارته، وفحولته.

أنا هنا امرأة زائدة، امرأة في مهمة واضحة منذ اليوم الأول، لا ليست الأمومة، مهمتي أبسط من ذلك، بويضة ورحم، كان يحب أن تكون هي أم أبنائه، يرتاح لعقلها، يطمئن لحنانها، يريد أن يشعر بزينة البنين في حضنها.

بعد 10 سنوات

«الرجل الذي ليست له سوى امرأة واحدة، إذا حاضت حاض معها، وإذا نفست نفس معها»، ضحك كثيف من الشيخ والحضور. جزء من موعظة لشيخ سلفي.

5 أطفال في عشر سنوات، رقم قياسي، كنت كمن يسابق الزمن،

ويثبت أهميته،

واكتشفت أنني قبلت هذا الزواج، وقاومت جاهليتي الأولى، كي يحظى هو بذرية بلا نفاس صفقة رابحة له، ومعادلة صعبة.

حطمت أحلامي، وأحرقت رواياتي، وغادرت نفسي، لينعمَ رجلٌ بهدوء من ضجيج الأطفال في بيت مرتَّبٍ نظيفٍ فوقي مباشرة.

ملابسه وأغراضه عندها، كتبه وأوراقه، راحة باله، وانكشاف غمِّه، واستعادة طاقته كلها بيديها.

وبزعم تخفيف العبء عني، استأثرت هي بما يخصُّه، بمراعاته ووقته الصافي، بالعناية بملابسه، وكتبه ومواعيده.

لم يميِّزني سوى أنني «أم عبد الرحمن» وهو أبوه، نشترك في الكُنية؛ ولكن حتى هذه الميزة فقدت حقيقتها، فأطفالي ينادونها بأمي، ويعلمون منذ بداية وعيهم أنها أمهم الثانية، ويحبونها أكثر، فهم يجدون عندها الدلال الذي لا تمنحه بسهولة أم مثقلة مرهقة محبطة مثلي، لم يكن لي أن أرفض شيئًا من هذا، وإلَّا كنت شريرة، متعالية بفضل الله عليَّ أن رزقني الإنجاب وحرمها، لم يكن لي أن أطلب تعديلًا، أو أبدي ضيقًا، وإلَّا كنت امرأة في جاهلية.

الانتكاسة المزعومة

يغضبون من تسمية الأشياء بغير أسمائها، كإطلاق المشروبات الروحية على الخمر، ثم يقعون في الأمر ذاته، فيطلقون على الإفاقة انتكاسة، فكيف يكون اعتدال الشيء وعودته إلى أصله انتكاسًا؟

استمعت قديمًا إلى أحدهم وهو يسرد أدلة كون تعدُّد الزوجات فطرة، بأن النبي سليمان طاف على 99 امرأةً في يوم واحد، استدل ذلك الفذ بذلك على كون التعدد هو الأصل! ولكنه لم يذكر، ولو من باب الأمانة العلمية، ولم يذكر غيره أبدًا، ما قاله عالم لا يفترون عن الاستشهاد به، وهو ابن القيم في «زاد المعاد» من أن للمرأة أن تطلب الطلاق إذا تزوج

عليها زوجها، هذا يكتمونه؛ لأنهم يروِّجون لفكرة ضرورة القبول والتطبيق وإلَّا كان رفضًا للشرع.

عدت إلى نفسي على مَهَلٍ، لم تكن ضغطة زِرّ، ولا إفاقة مفاجئة، عشر سنوات من الصدمات، واللطمات، والوعي والدراسة.

كان ضروريًا أن أرحل؛ ولكنه رحيلٌ جزئيٌّ، رحيلٌ مكانِيٌّ، وإعادة تشكيل لزواج مثل النفق الذي لم أجد مخرجه بعد.

بدأ أطفالي يفتحون أعينهم على الحياة، ولا يمكن أن أضحِّيَ بهم كما فعلت مع نفسي، كان على عاتقي أن أعلمهم النظر إلى السماء، والبحث عن الله في قلوبهم، لا عبر التلقين، وإرادة

الخير للعالمين، والشعور بالحبٌ دون تكميم، كان عليَّ أن أحميهم من سرقة الملذَّات، والشعور بالذنب من طبائعهم، ومن ارتباط الدين في قلوبهم بالعزلة والرفض والسخرية والتعالي.

كان عليَّ أن أحمِيَهم من تقسيم الناس إلى عوامَ وصفوة وفق مظهرهم، وكم الأسفار التي حُمِّلوها.

كان عليَّ أن أكون أنا، وأن أخيِيَ بقاياي التي طالما طاردتها، حتى يكونَ لهم أمٌّ حقيقية.

أفقت، وانتقلت، فتبع هو أولاده، وعلم أنه مضطر لقبول أمهم ببقايا جاهليتها.

عودة

دخلت على أبيها وهو جالس في البلكونة وحيدًا شاردًا، اتّجهت إلى مذياعه القديم وأدارته، جاءه صوت الست:

«وأبات أفكر في اللّي جرالك واللّي جرالي.»

ربتت على كتفه قائلة: أعمِلَك شاي معايا؟

أهوالُ بَيْتِ العائِلَة

حتى أقوى الدول وأغناها تحتاج عند الدخول في الحرب إلى تحالف، لا يمكن أن تدخل الحرب وحدها، فالحرب ليست جيشًا أقوى من آخر، هناك الغطاء الشرعي الأخلاقي، والمبرِّرات الكاذبة المعلنة التي تسوِّغ قيام الحروب، وتخفي الأسباب الحقيقية الدنيئة وراءها، كما فعلت أمريكا عند غزو العراق، وأشاعت كذبة أسلحة الدمار الشامل، وساندها تحالفٌ دوليٌّ، وهناك المساعدات «اللوجيستية» التي لا غنى لأية دولة عنها، وأنواع من الدعم المختلف الذي

لا يمكن أن تفوز دولة بالحرب بدونه، هذا عن الدول الكبرى القوية، فكيف بالدول الصغيرة؟ لا يمكنها أن تصمد في هذا العالم وحيدة، عليها أن تنضمَّ لتحالفٍ ما، وإذا أصرَّت على عدم الانحياز فعليها ألَّا تدخل أيّة حرب.

عندما قبلت أن أتزوج «علاء» بعد قصة حبٍّ طويلة في بيت عائلة كبير، صور لي خيالي أنني سأنعم بالدفء الأسري الذي طالما حُرمت منه، لا أنكر أن علاقتي بوالدتي رائعة؛ ولكننا كنا دوما وحيدتين، رحل أبي عن العالم وأنا في الحادية عشرة، وأكملنا الرحلة أنا وهي، ببيت هادئ جِدًّا، واهتمامات محدّدة ومنظَّمة، أفكارنا

هادئة، مشاعرنا جميلة مُحِبَة؛ ولكنها ليست صاخبة.

طالما اشتقت لإحساس الأخُوَة، أن يسندك آخر في هذه الحياة، ويفهمك حتى بدون أن تتكلم، ويشاركك تفاصيلك الصغيرة جِدًا؛ لذا فإنني لم أتردد عندما قال لي «علاء» أن شقته في بيت العائلة جاهزة ورائعة، ورغم تحذيرات أمي وصديقاتي، ولكنني شعرت بأنني سأكسب حبيبي وعائلته، وفي ظلّ هذا البيت الكبير العامر بإخوة وأخوات وعائلاتهم سأعوِّض ما فاتني من مشاعر القرب والسند، أما التحذيرات فقد استهنت بها جِدًا، كنت متأكدة ببلاهة أنني سأعبر كل المشكلات والخلافات

بلباقتي المعهودة، وابتسامتي الساحرة، ونيتي الطيبة، يا الله كم كنت ساذجة!

فكرة بيت العيلة كلاسيكية جِدًا، في مسلسلات البيئة الشامية تجد اللَّكنة تخاطب حماتها بـ«مرات عمي»، ببساطة لأن حماها هو «عمها»، وزوجها «ابن عمها»، البنت لابن عمها كان الأصل، حتى أنه طغى على الاستثناءات، فبَقِيَ إحساسها ونداؤها لأسرة زوجها كما لو كانوا بقية عائلتها، وإذا أخذنا في الاعتبار أن الفتاة كانت تتزوج في سنوات مراهقتها الأولى، فإن هذا يعطينا فكرة عن طبيعة البيت، طفلة تنضم للعائلة تتشرَّب تقاليدها وطقوسها،

وتُكمل زوجة عمها تدريبها بمشاعر الأمومة.

ولا يعني هذا أن المشاكل لم تكن موجودة، كانت المشاكل دومًا موجودة بين الحماة واللَّكنة، وطالما اشتعلت حروب السلايف، وأخوات الزوج، ووضع السابقين الأمثال المرعبة مثل: «الحمى حُمّى، وأخت جوزك عقربة سامة»، و«مركب الضراير سارت، ومركب السلايف غارت».

هذا العمق التاريخي الاجتماعي كان غائبًا عني تمامًا، كنت فتاة متفائلة بجنون، تشتاق حياتي للحركة والدراما، عشت حياة مضبوطة بزيادة، وكنت توَّاقة لبعض التوابل،

وفي الحقيقة لقد غرقت، أو بالأحرى ورمت من الفلفل والشطة الهندي في معارك لا تنتهي.

أدركوا جميعًا سذاجتي، وحُسن نيتي منذ اللقاء الأول، فزادهم ذلك رغبة في استقطابي، وكلما قاومت وأصررت على عدم الانحياز زادت المحاولات والضرب تحت الحزام لإرغامي على الاختيار.

فهمت البازل المعقَّد مع الوقت، كان هناك ثلاثة تحالفات في البيت، سِلفتان وأخت، أختان وسِلفة، وأختان.

لي: قد يبدو التحالف الأول غريبًا (سلفتان وأخت) ولكن هذه الأخت لها 3 بنات كبار، فهي الأخت الكبرى،

وريثة عرش حماتي، آه! حماتي، حماتي تتربع على رأس الهرم، تعمل على ضبط التوازن في التحالفات، وقصّ أجنحة من تتعاظم في نفسها، أو تنسى حجمها، تلعب مع الفريق الذي تريد وقتما تريد، وتغيّر دعمها بشكل مفاجيء سبّب لِيَ ارتباكًا كبيرًا، فلم يوصِني علاء عند بداية زواجنا سوى بها، قال اكسبي أمي، ومالكيش دعوة بالباقين.

ربّت حماتي ابنَي زوجها الكبيرين كابنيها، ويحبّانِها حبًّا لا حدود له، ثم أنجبت 5 بنات وولدين، ولكن الدكتور علاء كان هو دُرَة التاج، ابنها المفضل، ومصدر الفخر الأكبر في حياتها، وكان على زوجته أن تلبي طموحاتها، وقد

حاولت؛ ولكنني كثيرًا ما خيبت ظنها لفقداني الذكاء الطبيعي في إدراك التحوُّلات السريعة، وممارسة القلبات المفاجئة، كانت قدراتي محدودة في إظهار الغضب، ومعدومة تمامًا في الكيد والتخطيط للرَّدّ، فضلًا عن الشتم المغلّف، مهارة مطلوبة جِدًّا في بيوت العيلة، أن توجع الآخر بدون أن يُمسك عليك زِلّة، أن تُعيّرَه وتحُطّ من قيمته بشكل مفهوم ولكن غير ممسوك، وكيف لي أن أقوم بهذا، أو حتى أفهمه وقد عشت حياة خالية من المؤامرات، علاقة أمي بعمتي كانت ودودة ومتباعدة، وعلاقتنا بالجيران محدودة، نختار الأصدقاء، ونحترم الخصوصيات، ونستمتع

بالمساحة الخاصة ولا نبحث عمّا يخفيه الآخرون.

مَعْرَكَةُ الأُنُوفِ

طالب الخصوصية في بيت العيلة كالباحث عن الدفء في صقيع سيبريا، وحتى لا تحرق أعصابك دون جدوى، فعليك ألّا تفكر في حماية خصوصيتك، ولتكن أقصى أمانيك أن يكفيك الله شرّ الأيادي بعد الأنوف، فأنوف المحيطين موجودة في حياتك شئتَ أم أبَيتَ، وأيّة محاولة للاختباء ستزيد فضولهم اشتعالًا؛ ولكن ماذا سيفعلون بعد المعرفة، هذا هو السؤال الأهمّ.

بعد شهر من زواجي، وفي إحدى الاجتماعات في البيت الكبير، يعني بيت حماتي وهو بمساحة 4 شقق من بيوت الأبناء والبنات، دسّت أخت زوجي الكبرى أنفها في حياتي لأول مرة بشكلٍ صريح، وسألتني أمام الجميع:

إيه، مفيش حاجة في السكة؟

ابتسمت وقلت: لأ لسّه.

ساندتها في السؤال سِلْفة من حزبها قائلة: يلّا اتجدعني كده وفرحينا بولاد علاء.

علقت أخت زوجي، وكانت من عمري نفسه تقريبًا، ومتزوجة حديثًا ومعها طفل قائلة: ما تسيبوها، هي

لحقت، خلّوها تتهنّى شوية، ما أنا أدامكم متبهدلة أهو.

بدا التعليق وكأنه نجدة لي، ابتلعت الطعم بالفعل، وأعلنت المفاجأة: إحنا فعلًا مأجّلين الموضوع ده دلوقتي.

ساد صمت رهيب؛ ولكن نظرات حماتي المرعبة بدا لي وكأنّ لها صوتًا، كانت نظرات بصوت العِواء المنفرد في ليلِ المُذؤَبين.

قالت حماتي بصوت أجَشّ: وده ليه إن شاء الله؟!

من وراء خوفي وحيرتي أجبت أسوأ إجابة ممكنة، الإجابة التي وضعتني في القائمة السوداء، ومهّدتِ الطريق لرحلة من الاضطهاد، قلت

ببراءة: علاء عاوز نأجّل سنة عشان نتبسط شوية قبل دوشة العيال.

أطبق الصمت المرعب من جديد، فقطعته بمزيد من التوريط لنفسي: بس متتقلقيش حضرتك، إحنا عاملين فحوصات، وكله تمام إن شاء الله.

ردّت متجاهلة تعليقي: وإيه اللّي يمنع من الانبساط في الخلفة؟ وإيه يبسط أكتر من نعمة الذرية يعني مش فاهمة؟!

أجبت: أكيد في حاجات كتير تبسط عاوزين نعملها الأول قبل مسؤولية الأطفال.

ردّت بسخرية: اللّي هوّا إيه مثلًا؟

أجبت: الخروج والسفر والسهر والكلام والتخطيط لحياتنا.

ردَّت: ده اسمه كلام فارغ!

أجبت بدهشة: كلام فارغ إزاي؟ دي حاجات جميلة إحنا بنحبها، ومحدش بيجري ورانا في موضوع الحمل، ومش هنستعجل إلَّا لما نحس إننا مستعدين له.

وفجأة، بدت لهم الفتاة اللطيفة المبتسمة للجميع، ذات الهدايا والترحاب، متحدية للسلطانة الأم أمام الجميع، كانوا ينظرون إليَّ بمزيج من الصدمة والشفقة.

قامت حماتي دون أن تنطق بكلمة، وأغلقت باب غرفتها، ربَتَتْ أصغر سِلْفة على كتفي قائلة: ربنا معاكي.

في مساء هذا اليوم كنت على موعد مع علاء للعشاء في الخارج، كنا نحاول أن نمدّ أجواء شهر العسل، ونكسر جِدَّةَ انقطاعه الطويل في العمل، بسهرة رومانسية، اتصل بي: أنا وصلت، يلّا انزلي.

كنت مستعدة ونزلت مسرعة سعيدة، وأنا أركب السيارة شعرت بأن أحدهم يراقبني، التفتُّ، فإذا بها حماتي تراقب الموقف من نافذة حجرتها، لوَّحت لها بيدي، فرمقتني طويلًا ولم تردّ.

سرنا بالسيارة حوالى 5 كيلو، ثم رنّ هاتفه، أجاب باقتضاب والتوتر يعلو وجهه، ثم قال لي وهو يعكس

اتجاهه عائدًا: «معلش يا حبيبتي في حاجة في البيت ضروري نرجع».

دقَّ قلبي بسرعة، وقلت بخوف: «خير يا رب، طمِّني في إيه؟!».

أجاب: إن شاء الله خير، أمي عاوزاني ضروري.

عدنا بسرعة، وما أن وصلنا حتى باغتتنا حماتي، واقفة أمام البيت في كامل أناقتها، قالت بلهجة ساخرة: إيه مالكم مخضوضين كده ليه؟ شفتو عفريت؟

ردَّ عليها: لا العفو يا أمي، أنا بس خفت يكون فيه حاجة!

أجابت: ما هو في حاجة فعلًا، ولا عادي ترجع متسلمش عليّا، وتخرج

من برّة برّة عشان تنبسط بحياتك، على كلّ حال أنا ضيّعت عمري في الخِلْفة والتربية، مش من حقي أشمّ هوا ولا إيه؟

وأشارت إليّ بطريقة عجيبة أن أجلس في المقعد الخلفي، وجلست هي مكاني، وبلهجة آمرةٍ قالت: «يلا ودّيني معاكم نفس المكان اللّي كنتم هتروحوه لوحدكم».

حاول أن يكون مرحًا، وكأن الزيادة في جرعة المرح والضحك ستنقذه، وقال: يا سلام يا ست الكل، ده يتشرف بيكي، وسعادتنا تتضاعف بوجودك.

في الحقيقة لم تكن لَدَيّ أية مشكلة في أن تخرج معنا، بالعكس

كان يمكنني أن أشجع على هذا، وأستمتع به؛ ولكنها لم تكن تسعى للخروج ولا الاستمتاع، كانت ببساطة تعلن الحرب عليّ، وتريني أن مقاليد الأمور بيدها، وتعاقبني على ردِّي عليها، وتظهر لي حجم ضعفي، وهشاشة تخطيطي لحياتي.

عاملتني بتجاهل بالغ هذه الليلة، رغم محاولتي تلطيف الأجواء، تمزح معه، وتسخر من المطعم والطعام والروَّاد، طلَّعت «القطط الفطسانة» في كلّ شيء حتى وحدات الإنارة المخفِيَة في السقف، وأغرقتني بتعليقات من قبيل: «إيه بقى الانبساط في كده»، أو «يا سلام على المتعة الفظيعة».

أعرف أن مثل هذه المواقف تتسبب في ضيق الزوجات الصغيرات، وتشعرهن بالحصار، وتحطم الأحلام، وبكثير من الضآلة والمنافسة، ولكنني اكتشفت في هذا اليوم قدر النضج والسلام بداخل نفسي، شعرت بها كم هي ضئيلة! لديها 9 أبناء وبنات، وأحفاد أوشك بعضهم على الزواج، وصحتها جيدة، وزوجها يقدرها، مع وفرة من المال، وقدر من التعليم، ثم يحترق قلبها لأن أحد أبنائها، أو ابنها يريد أن يستمتع بوقته مع عروسه كما يشاء، وتشعر بالغيرة من فتاة صغيرة؛ لأنها مقبلةٌ على الحياة مع من تحب.

وكما قررت من قبل أنني لن أدخل في تحالفاتهم، ولن أسمع غيبة واحدة لأخرى، فقد قررت أنني لن ادخل في حرب مع حماتي، فهي والدة زوجي، وبمقام أمي، ولكن هذا القرار كان مصحوبًا بآخر لا يقلّ أهمية، لي حدودٌ وخطوط حمراءُ، لن أسمح بتجاوزها لكائن من كان، وسأحاول أن تكون الأمور واضحة، فأخطر ما في بيت العيلة هو القيل والقال، وتمويه الحقائق، وأخطر ما يمكن أن يحدث لي هو أن أفقد ذاتي، وأضطر لمسايرة الركب، في نقل الكلام، وإهدار الوقت والأحلام في دوائر مفرغة من الكراهية والحقد والتنافس، وأن أخسر سلامي

الداخلي، وأن أخسر محبّتي لزوجي، وأن أقبل أن تهانَ كرامتي.

مرحلة الاضطهاد

فُرضت عليَّ عزلة في البيت، لم تعد أطباق الحلوى صاعدة نازلة، ولا جلسات السمر الاضطرارية، ولا عروض المساعدة الخالية من المعنى، ربما ظنت حماتي أن هذا سيزعجني، فأنا في النهاية فتاة وحيدة لا أخ ولا أخت، ويتيمة الأب، وليس لي سوى أم عاملة، وعدد من الصديقات؛ ولكنها لا تعرف كم كانت هذه العزلة مريحة! شعرت وكأني في حلم، أحظى بوقتي وحدي، أنام وأخرج وأطهو بنفسي وأجرب، ربما حلم الدفء العائلي لم

يتحقق، ولكن هذه الخصوصية هي بيئتي الطبيعية التي أرتاح فيها، ولا يمكن لمن وُلِدُوا في الزحام أن يدركوا هذا، كانوا يتخيّلون أنني أعاني.

شعر علاء بالتغيُّر في معاملتي، وبقطيعتهم لي؛ ولكنه لم يفتح معي الأمر مباشرة، كان يراني سعيدة، يسألني: كيف الحال؟ الدنيا متغيرة في البيت؟ أردُّ عليه: كله تمام والله، مرتاحة متشغلش بالك.

أما السهرات والخروج، فاستبدلتهما بسهرات بيتية، وخروجات أصطحبه أنا فيها لا العكس، لم يكن مضطرًا أن يصل للبيت، فيأخذني على مرأى ومسمع

من المشاهدين في جميع الطوابق، كنت أذهب إليه في عمله لنخرج سويًا، كنت أؤخّر صدامًا وشيكًا ينبؤني إحساسي أن حماتي لن تتحمل هذا الهدوء والسلام طويلًا، طريقتي أقلقتها، وعدم قبولي الدخول في تحالفاتٍ بدا لها وكأنني أنازعها الملك، هي فقط التي لا تحتاج إلى تحالف، فمن هذه الطفلة التي تسعى للاستمرار في مملكتها وحدها، أو تشيع السلام في حروب أهلية لا تعرف الهُدْنة.

الفتنة

كنت قادرة على الاستمرار هكذا لألف عام، فتغير تكتيك الحرب، كان

على الخلاف أن يدبّ في صفي الداخلي، أن تنتقل المعركة إلى عقر داري، أن تشتعل الحرائق بيني وبين علاء، وأن يقع هو في جحيم: أمي، أم زوجتي؟

قُبيل عيد الأم جهزنا الهدية، خاتم ذهبي ثقيل، هدية لا خلاف عليها غالبًا، اجتمعت العائلة في اليوم الموعود وقدم الجميع هداياهم، أمسكت حماتي بالخاتم ونظرت لزوجي بخيبة أمل قائلة: كنت أتمنى تجيب لي الهدية اللّي أنا عاوزاها، بس شكلها كده صعبة عليك!

حاول علاء أن يغيّر الحوار، قائلا: الدنيا كلها متغلاش عليكي يا حبيبتي.

أعادت الكرة إلى الملعب بإصرار، قائلة: أنا مش عايزة الدنيا، عاوزة أشوف ولادك بس، ولّا لسه مخلصتوش مطاعم وفسح وكلام فاضي!

إن شاء الله يا أمي، دي حاجة بتاعت ربنا.

ولما هِيّا حاجة بتاعت ربنا، بتوقفوا إرادته ليه؟

إن شاء الله خير يا أمي.

في هذه الليلة اشتعل الخلاف بيننا تقريبًا لأول مرة، قال لي: أعتقد أن الوقت حان لنسمح بالحمل.

تعتقد أنت أم تعتقد والدتك؟!

ما تلخبطيش في الكلام.

إحنا كنا متفقين على سنة، إيه اللّي حصل؟

هوَّا يعني السنة دي منزلة، خللًي سنتك بـ9 شهور يا ستّي!

أنا معنديش مشكلة، ومشتاقة للذرية، بس محبش آخد أوامر.

واستمر الجدال، وانتهى بخصام.

كانت حماتي أمًّا ماهرة، تعرف أبناءها من تغيُّر وجوههم وأصواتهم، شمت رائحة الخصام، وعرفت أن الفتنة دبَّت في بيت ابنها، فطرقت على الحديد وهو ساخن.

بعد أيام من الكلام المقتضب، واللقاء العابر بيننا، فوجئت به يسألني دون النظر إلي: إنتي ليه مبتنزليش

عند أمي زيّ غيرك؟ إشمعنا إنتي اللّي مش بتعبريها؟

رددت بهدوء: نزلتلها كذا مرة، وحسيت إنها مش مبسوطة، أو مطلعتش قابلتني فمبقيتش أنزل.

مش مبسوطة إزاي؟ هيَّا لازم يعني تفرش لك الأرض ورد لما تنزلي عشان تحسّي إنها مبسوطة، إنتي مش ضيفة على فكرة.

لا مش مسألة ورد، بس مبتردّش ولا بتبص لي، لو إنتا شايف إن ده ردّ فعل عادي، فهو بالنسبة لي مش عادي.

بس نادية أخته الكبيرة بتقول إنّك مبتنزليش خالص.

آه جميل جِدًا، نادية صح، وأنا كذابة! والأجمل بقة إني أنا مكبَّرة دماغي عن كلامهم، ومش داخلة في مواضيعهم، وإنتا تفضي نفسك لجمع الآراء.

احترمي نفسك.

محترماها جِدًا.

خصام جديد أطول.

إطلاق نار على الحدود

الشيء الجميل بيني وبين علاء كان أقوى من الفتنة، أشفقت على حاله، فهي في النهاية أمه، وأعلن لي تفهمه وتقديره لطريقتي، وإدراكه

لصعوبة الوضع، فعادت المياه بيننا رائقة.

ولما أن فشلت الطرق السابقة في إخضاعي للمناخ العام، وأن أكره حياتي الوليدة، كان لا مفرَّ من المواجهة العنيفة، كنت قد أعددت عزومة لصديقاتي، غذاء نتبعه بحفلة صغيرة لموافقة يوم ميلادي، كنت متعبة ولا أرغب في الخروج، فقررن أن يأتين إليَّ، خاصة وأنهنَّ لم يزرنني منذ زواجي.

وعلى بوابة البيت الخارجية وقفت حماتي بدون أن تطرف عينها تصرخ بصوت عالٍ: إحنا آسفين مش بندخَّل الأشكال دي البيت، ده حتى الملايكة تهرب منه!

اخترق صوتها أذني بالتزامن مع رنين هاتفي.

صوت صديقتي: معلش يا ندى مش هنقدر نيجي.

أنا باستغراب: ليه؟!

قالت بتردد: حصلت ظروف.

ولكنني سمعت صوت حماتي من هاتفها، كانت صديقتي تحاول أن تنهي الموقف دون أن أشعر أنهنّ ممنوعات على الحدود، ولم تصرّح لهنّ السلطات بالدخول.

هرولت على السلم لأجدها واقفة أمام البوابة الحديدية وصديقاتي مشدوهات في الخارج، قلت لها: بعد

إذنك عشان افتح لهم، دول صحابي وجايين يزوروني.

لم تردّ عليّ، ولا نظرت في وجهي، وقد خرج الجميع من الشقق يشاهدون أكثر المشاهد سخونة في حياتهم، رددت جملتها بشكل أكثر إذلالًا: لمّا الصحاب يبقوا بالشكل ده يبقى مينفعش يدخلوا بيت محترم!

قلت وأنا لا أعي تمامًا ما يحدث: شكل إيه؟

أشارت إلى إحدى صديقاتي وكانت ترتدي جيبة قصيرة نوعًا ما: بالشكل ده.

كانت هي ترتدي ما يحلو لها، وكذلك بناتها وحفيداتها، وكانت أغلب

صديقاتي محتشمات، لا أبرّر موقفي، فقط أظهر فداحة التلكيكة.

قلت لها: إنتي كده بتهينيني، وبتطردي ضيوفي!

قالت ببرود: ابقي اختاري صحابك كويس عشان محدش يهينك!

قالت لي ذات الرداء القصير: ولا يهمك يا ندى، متزعليش نفسك.

قلت لهن: آسفة جِدًا يا جماعة، وأوعدكم إن الموقف ده مش هيتكرر أبدًا، ويا ريت لو ليَّا خاطر فاضل عندكم تنتظروني في بيت ماما.

ضحكت حماتي وقالت: أيوه في بيت ماما، لمّيهم هناك، لكن عندي لأ!

صعدت إلى شقتي وقلبي يكاد يقفز من مكانه، شعرت حينها بأنني مهزومة منذ اليوم الأول، وبأن الحرب مفروضة عليّ، لا خيارَ ليَ حتى في رفضها أو اجتنابها.

اتصلت به: تعالى دلوقت، يا إمَّا مش هتشوفني تاني!

بعد نصف ساعة كان قد وصل للبيت، وقبل أن يصل إلَيَّ كان قد سمع القصة بأكثر من رواية من الصغير والكبير.

كنت قد جمعت ما استطعت من أغراضي، وارتديت ملابسي، ووقفت أمام الباب، فتح، فوجدني على هذه الحال، حاول تهدئتي، وقال: طيِّب ادخلي نتكلم.

مش قادرة أتكلم، ومش هقدر أقعد دقيقة واحدة.

طيِّب حقك عليَّا أنا، لو ليَّا خاطر عندك اقعدي، لونك مخطوف.

لو مش هتودِّيني عند ماما دلوقتي هنزل لوحدي، ومش هتشوفني تاني.

حمل الحقيبة ونزلنا، ومن نافذة غرفتها قالت بصوتٍ عالٍ: بالسلامة!

كنت متعبة إلى حَدّ الانهيار، نفسيًّا وجسديًّا، شعرت بمرارة الظلم والإهانة، وكسر الخاطر، مع دوخة شديدة، وألم في عيني من البكاء.

في حضن أمي ارتميت، ونمت في سريري، أفقت على وجه زوجي

والطبيب يقيس ضغطي، وأمي تجلس بقربي ممسكةٌ بصينية الغداء.

بعدها بساعة كنت قد استعدت بعض قوتي، فطلبت مني والدتي أن أقوم باختبار الحمل كما قال الطبيب.

كنت حاملًا بالفعل، توافُقٌ عجيبٌ، في يوم عيد ميلادي، وعيد رحيلي عن ساحة المعارك، أعرف أنني حامل، لم يكن مقدَرًا لحماتي أن تبتهج بامتداد سلطانها وسيطرتها عليَّ وعلى أحفادها مني.

أرملةُ حَيّ

أن تجد نفسك فجأة في عرض البحر وحيدًا، لا منقذَ ولا شيءَ، ولا حتى تلك القشة التي يتعلق بها الغريق، أن تُصبحَ على أملٍ، وتُمسيَ في أحضان اليأس الأسود.

أن تطردك الحياة من قطارها، وتضطرّ أن تظلّ مشاهدًا لحركة المسافرين مهزومًا مدحورًا، أن يعلق بك همُّ الحياة ورهقها دون أن تَرْبِتَ على كتفك حُنوًّا ومؤانسة.

أن تغادرك راحة البال، وتضطر أن تُكمل مع الخوف والحزن.

أصبحت وأنا أعدّ نفسي للولادة، وأنتظر وزوجي بترقب طفلتنا الأولى التي تملَؤ بيتنا فرحة وحياة، وأمسيت نقطة في هذا الكون وحيدة مع ما في بطني، وقد غاب الحبيب، وتهدم البيت، وكُتبت على القلب رحلة من الشقاء.

كنا قد خلدنا إلى فراشنا، أتقلّب بصعوبة شديدة، فقد ثَقُلَ حملي، وأخبرني الطبيب أن أنتظر الولادة في أيَّة لحظة، أغمضت عينَيّ على أغراض ابنتي القادمة، كنت أضعها أمامي فرحًا واشتياقًا، لا أدري هل نمت، أم كانت سنة خفيفة اختلط فيها الحلم بطرقات الفزع على بابنا.

قام زوجي مفزوعًا، فتح لهم الباب، فدخلوا ببنادقهم وعساكرهم، ولم يتركوا شيئًا في البيت إلَّا وعبثوا فيه، كانوا يطلقون تهديداتهم ويلقون بعباراتٍ ظلت تحرق عقلي لشهور، يسألون زوجي عن أسماء غريبة أغلبها كُنى، ويسألونه عن صلته بداعش ويتوعدونه بأشدّ الوعيد، وهو يقسم بالله أنه لا يعرف أحدًا بهذه الأسماء، وينظر لي ويحاول التماسك أمامي، ويطلب مني الجلوس والهدوء حفاظًا على ما في بطني، ثم يُقسم لهم بالله ثانية أنه لا يكره في حياته أكثر من هؤلاء الدواعش، فقد ماتت أخته ضحية لتفجيرهم الإرهابي، فيستهزئون به

ويسبُّون أخته، ويسألونه عن سِرّ ذهابه للفلوجة الشهر الماضي، فيصرخ ويقسم عشرات الأيمان أنه لم يغادر مسقط رأسه بغداد منذ 5 سنين، فيضربونه ويسبُّونه بأبشع السباب.

أفرغوا نصف مكتبته في شِوال كبير، وحملوا اللّاب توب، واقتادوه معصوب العينين، وهددوني إن حاولت الاتصال بجماعته أن يفعلوا بي الأفاعيل، وأنا في حالة بين اليقظة والمنام، لا أدري عمَّ يتحدثون، انفصل عقلي عن الواقع وكأنني أشاهد فيلمًا مفزعًا مدمّرًا للأعصاب، بلا مهربَ ولا نهاية.

لا أدري كم مرّ من الوقت؛ ولكنني لاحظت شروق الشمس، أفقت من

صدمتي مترنحة، وطرقت باب جارتي التي فتحت لي برعب، وأجلستني، وحاولت أن تواسيني وهي خائفة، طلبت منها أن أتصل بأهلي، فقد أخذوا جوّالي أنا أيضًا، فترددت، وقالت لي أعطني رقم والدتك وسأكلمها أنا، وأكّدت عليّ ثانية: رقم والدتك فقط!

«لا أحد يريد المشكلات»، هذا ما تعلمته جيّدًا، وعذرت الناس فيه، يتعاطفون معك؛ ولكنْ لتعاطفهم حدود، ألا تهدد أمانهم، لا ألوم أحدًا، حدثت نفسي آلاف المرات أنه إذا انكشف عنّي الكزب يومًا سأسير بجوار الحائط، لا، لا يكفي، فقد كنا نسير بجواره بالفعل، سنتوقف عن

السير، سنتوقف عن الحديث، وسنخرس حتى أصواتنا الداخلية، فهذه الأصوات الداخلية تُحاسب عليها، وتجدها فجأة تحت المجهر يفتش فيها المحققون، وهناك من يُعاقب على حُلم، حُلم نوم لا يقظة، على هلاوس عقله الباطن، لا فرق في عراق اليوم بين الهاجس والفعل، ولا بين الخاطرة والعزم، ولا بين داعشيّ ومعارضٍ، ولا بين سجون الحشد والحكومة، ولا بين الاحتلال وما بعده، تحت نير الطائفية والعبثية والفوضى يُسحق الإنسان، وتُهدر كرامته، ويضيع رقمًا في زنزانة.

خمسة أشهر من العذاب المبين، لا فكرة مطمئنة تُظلّني، ولا خبرًا أو أملًا

يُقلني، انقطاع تام، ظلمات بعضها فوق بعض، أين ذهب؟ وماذا سيحدث به؟ هل هو حي أم؟

لم أشعر بألم الولادة، رغم أن ولادة البِكْرِيَّة عادة ما تكون عسيرة؛ ولكن ألمي الداخلي غطَّى على إحساسي، لم أحتجْ لتخدير، ولدت ابنتي، فلم أعرف هل أضحك أم أبكي، ولكنني علمت مع الأيام أنها آية اللطف في محنتي، لم يشأ الله أن يتركني وحيدة، ولا أن يكلني إلى قوتي العادية، أن تكون أبًا أو أمًّا، فهذا يمُدُّك بمددٍ يتعدى حدودك، يُكسبك قوة الوقوف، والثبات مهما كانت العاصفة.

يوم الاختفاء القسري ليس كغيره من الأيام، مضت علينا بعد ذلك أعوام تنقَّل فيها زوجي بين السجون؛ ولكن أيام الاختفاء القسري تبقى هي أبشع ما في الحياة، لا أدري كيف مرَّت؛ ولكنني أعلم أنني بعدها لم أعد أبدًا كما كنت من قبل، انصهرت وتشكلت، مت آلاف المرات، مررت على كلِّ أفكاري وذكرياتي فغربلتها، تساءلت كل الأسئلة الوجودية، أنكرت وغضبت وانعزلت واشتعلت نيراني، ثم انطفأت.

أشدّ اللحظات فزعًا هي فور الاستيقاظ، أفتح عينَيّ، فيهجم عليّ «البانيك أتَّاك»، ليتني بقيت نائمة، ليت في هذه الحياة وضع «الشُبات»

كما في أفلام الخيال العلمي، فلا أخرج إلَّا بعد الفرج، لم أكن حالمة بجَدِّيَة لدرجة أن أترقَّب عودته، كنت فقط أريد أن أزوره، ثم هبطت أحلامي لأنْ أراه ولو من بعيد، حتى وصلت إلى أن أعرف عنه خبرًا.

«حليب أسود»، ليست رواية إليف شافاق، بل هو ما أرضعته ابنتي، نهرني أبي «حرام عليك بنتك»، ولكنْ ما بيدي حيلة، لو أسكت هذا البكاء سأموت غرقًا.

في البداية كان إخوتي وأزواج أخواتي يدورون ويسألون لعلهم يسمعون خبرًا، يزورني أهل زوجي ونتواصى بالصبر، ثم بدأت مراكب الآخرين تسير، انفضَّ كلٌّ إلى همِّه،

وما أكثر الهموم، أصعب أنواع النسيان هو النسيان عجزًا، أن لا حلَّ لك سوى النسيان، فلتنسَ أو لتمت؛ ولكن الموت ليس بهذه السهولة، تنسى أو تعيش ميتًا، يأتيك الموت من كلِّ مكان وما أنت بميت، فلتنسَ.

ولكن كيف أنسى أنا؟ وكيف أعيش بدونه؟ لم أكن زوجة في ريعانِ شبابها فقدت زوجًا، ولا أمًّا صغيرة غاب عنها سندها، ولا عاشقة ذابت شوقًا لمحبوبها، طيلة الخمسة أشهر اختفاء كنت أمًّا تاه طفلها الصغير في زحامٍ بين المجرمين، في أرض عديمة الرحمة، فكيف تنام؟ بل كيف تصحو؟ كيف تنسى؟ بل كيف تتذكر؟

أهَدْهِدُ طفلتي على ألحان حزينة فتنام، وتدخل عليّ أمي، فتهدهدني بلحنٍ مشرق، هيرجع يا بنيتي هيرجع، والله ليرجع وهفكرك، فأبكي، وأستنشق عبير الأمل لدقائق أنام عليها.

يصبرني الناس، ويعزّونني كالأرملة عندما يضطرُّون لرؤية حزني، وتأتيني هواجس موته، فأتعلق بما بَقِيَ من إيماني، وأصلّي، وأستعيذ بوجه الله الكريم من الفجيعة، ثم تأتيني خالتي برؤيا فرجٍ رأتها لي أن زوجي حيٌّ وبخير، وأسمع عن خروج معتقلين، ومعرفة أماكن آخرين، وحِراك في مجلس النواب، يُجَدّد

بصيصَ الأمل، «أرملة حيّ» يتقاذفها اليأس ويُبقيها الإيمان.

وذات ليلة وقد نامت وليدتي في حضني، وحاولت النوم بعد ذِكْرٍ طويل، كنت أحب الدخول للنوم عسى أن أراه في أحلامي، وإذا بضجيج في الخارج، أمي تطرق الباب وتفتح متهلّلة:

اصحي يا منتهى، ناجي على الجوّال!

قفزت وأنا مشدوهة، كنت متأكدة أنني أحلم، وليكن، فلأحلم، أمسكت بالهاتف، فأتاني صوته، سَرَتِ الحياة في أوصالي، شعرت بتدفُّقها في كلّ خلاياي:

حبيبتي اشتقت لكِ.

بكاء.

لا تبكي يا عمري، أنا بخير، أرسلت لك كثيرًا، ألم يصلك شيء؟

لا لم يصلني شيءٌ.

أنا بخير يا حبيبتي، وعن قريب إن شاء الله سأراكم، وسأكون معكم.

طَمّني عليك، أين أنت؟

أنا في توقيف، وغالبًا سيتم ترحيلي عن قريب إلى أحد السجون الجيِّدة، لا تقلقي لن يطول الأمر، يعلمون أنني جئت إلى هنا افتراء، طمّنيني على ابنتي؟

الحمد لله يا حبيبي ولدت ولادة سهلة، وجاءت «مريم» مثل القمر.

مبارك يا أم مريم.

مبارك عليك يا أبا مريم.

أوصيك بنفسك وبمريم، استبشري واصبري، أريدك «منتهى» القوية التي عرفتها دومًا عزيزة لا يرى أحدٌ دموعها، واثقة بالله تعالى، فهو أكبر من كلِّ شيء، أنا بخير حالٍ واللهِ.

صحتك جيدة؟

جِدًّا جِدًّا والله.

وحالتك النفسية، هل تتعذب؟

لا على الإطلاق، اطمئنّي تمامًا، أيامٌ وسوف تمرّ على خير بإذن الله، اسمعي عليّ أن أغلق الآن، سأحاول الاتصال بك قريبًا.

انتظر يا ناجي، قل لي مكانك، حتى نحاول زيارتك.

لا، لا تحاولوا، لا زيارات في هذا المكان، أحدهم سرَّب هذا الهاتف، ولكن سيتم ترحيلي قريبًا كما أخبرتك، اصبري هانت بإذن الله.

ناجي.

نعم يا حبيبتي.

أحبك جِدًّا، أكثر من روحي، ونحن بخير اطمئن علينا.

أراح الله بالك حبيبتي.

ناجي.

نعم.

أنت بخير؟

نعم وربّي بخير، وأحلم بكِ كلّ ليلة يا جميلتي، أنت معي دومًا، أشتاقك، وأشتاق بيتنا، وأقضي يومي

هنا في الذكر والدعاء، ولا أتعرَض لسوء، اعتبريني مسافرًا، صبرًا جميلًا يا حبيبة القلب.

أستودعك اللهَ الذي لا تضيع ودائعه.

أستودع الله دينك، وأمانتك، وخواتيم عملك.

طلب إبراهيم عليه السلام من ربه أن يريه كيف يُحيي الموتى، لا عن شك؛ ولكن ليطمئنَّ قلبه، فأحيا له الله الطير، فازداد إيمانًا إلى إيمانه، وأصبح خليل الرحمن، وأنا، أنا التي لا شأن لي، ولا يأبه بي أحدٌ، نقطة صغيرة في هذا الكون الساحق، أراني الله كيف يحيي الموتى، أغاث قلبي من بعد القنوط، ونشر عليه رحماته،

أصبحت بعد هذه الليلة حيّة، متعبة خائفة حيرى أو حتى معذبة ربّما، ولكنني حيّة.

بدأ الظلام يحلّ تدريجيًا بعد هذه المكالمة، أسبوعان لا يغادر هاتف أمي يدي، وأستمع إلى رنينه باستمرار، يفتّتني الإحباط، ويجتاحني الشكّ أن هذه المكالمة كانت من نسج خيالي لولا تأكيدات من حولي، أتماسك وأتشبّث بكلماته، وأحمد الله على هذه النعمة رجاء المزيد، ولكن ظهوره الثاني كان مختلفًا، رسالة من عابر سبيل.

رسالة ورقية مكتوبة بشكل سريع ومختصر، مرّ بها أحدهم على بابنا: «أنا بخير في سجن»... «رتّبوا

للزيارة إن استطعتم، ولا ترهقوا أنفسكم، فرج الله قريب».

لم أدرِ، هل أبكي أم أضحك؟ أليس هذا ما تمنّيته طيلة أشهر؟ أم كان من تحت اليأس أمل صغير بأن يخرج مُعافى، ويعود وكأنّ شيئًا لم يكن؟

رأيت الحزن في أعين أهلي، يدركون الواقع جيّدًا، الداخل مفقود والخارج مولود، يزجُّون بالناس في الزنازين سيولًا، ويخرجون منها كالجمل من سَمِّ الخِياط.

ولكنني تماسكت، وابتسمت، وحمدتُ الله، وبدأت في البحث عن محامٍ، والتفكير في الزيارة، اتصلت بصديقة جديدة تعرفت عليها خلال محنتي، لديها أخ معتقل، وعندها

خبرة كبيرة كانت تنقصني، وكانت من هذا النوع الذي يبثُّ الأمل وهو مفتقد له، طلبت مني أن أفرح لأنْ سجون الأنبار أفضل بكثير من غيرها، وأقنعتني أن هذا مؤشرٌ جيِّدٌ، وأنه على الرغم من مشقة السفر؛ ولكن لدينا فرصة في الزيارة، بخلاف سجون بغداد.

ولكن صديقتي لم تكن مطلعة على التحديثات، فعلى الرغم من أن الطريق من بغداد إلى الأنبار يُقطع في ثلاث ساعات، ولكنَّ رحلتنا استمرت لنصف يوم، وكأننا خارج الزمان، هذي بلاد تشبه بلادي؛ ولكنها قطعًا ليست هي، طريق وعرة مرعبة، أطلال منازل وطرق مهدَّمة، ونقاط

تفتيش متواصلة، هذه للجيش، تليها بساعة نقطة تفتيش لإحدى الميليشيات، ثم ثالثة لداعش يجب أن أرتدي قبلها النقاب الذي لا يبدي حتى العينين اتقاءً لشرِّهم، فعقاب من لا ترتديه الجَلْد! وفي كل نقطة تحقيق وتفتيش وعذاب للصغيرة التي كادت أن تهلك بين يَدَيَّ من الحرِّ والتعب والضجيج.

وصلنا، واضطررنا للمبيت حتى يشرق علينا نهار جديد عسى أن تبرد فيه قلوبنا، نوم من شدة التعب، وعقل يقظ؛ قلقًا من اضطراب الزيارة وعدم الدخول، فالزيارة «ضربة حظ» ليس شرطًا بعد أن تقطع هذه المسافة، وتذوّق كلّ هذا العذاب أن

تتحقق، قد يمنعها اضطراب في الداخل يتم تكدير المعتقلين بسببه، وقد يمنعها زيارة قبلها حاولت إدخال ممنوعات، وبالأخصّ الهواتف، وقد يمنعها مزاج الضابط، أو عدم استحسانه لشكل الزائرين.

وقفت في طابور طويل، بجوار والد زوجي، نحمل الصغيرة وحقيبة الملابس والطعام، في انتظار نداء اسمه، وقد حذرني بعضهم من احتمالية إخفائهم له، ففي الزيارة الأولى غالبًا ما ينكرون وجود المعتقل؛ بل ويحققون مع أهله عن كيفية معرفتهم لوجوده هنا؛ ولكن هل من خيارات لدينا، كنا مجبرين

على التشبُّث بخيط النور الرفيع، فما أضيقَ العيش لولا فسحةُ الأمل!

نظرت إلى نفسي وإلى طابور المهمومين، إلى هذا السجن المخيف في قلب الصحراء، وقد احتشد بداخله الآلاف اشتباهًا، والشُّبهة في بلادي بعد الاحتلال ملتصقة بالجميع، أنت عراقي إذًا أنت مشتبه بك، هذا هو قانون الحرب والفوضى «الخلّاقة»!

ضحكت عبثًا، أهذا هو العالم نفسه الذي تُوزَّع فيه جوائز الأوسكار؟!

أهذا هو العالم نفسه الذي كانت قبل أشهرَ معدودة أقصى همومي العثور على تخفيضات على ملابس

الأطفال، والعثور على وظيفة مناسبة؟

أهذا هو العالم الذي كنت أتسلّى فيه بقنوات الطهي والماكياج، وتنشأ المعارك بيني وبين زوجي غيرة عليه ممَّن وضعت له إعجابًا على صورته على فيس بوك.

هل هذه هي الأرض نفسها؟ وتلك السماء نفسها؟ وهل أنا هي تلك الطفلة التي فتحت عيناها في طمأنينةٍ، ورغدٍ من العيش، ومدرسةٍ متطوِّرة، ورفاهيّات كثيرة، وأحلام لا حدود لها.

أما الخيامُ فإنَّها كخيامهم وأرى نساءَ الحَيِّ غير نسائها.

أفقت على يد حمايا يشير إليَّ وهو مبتسمٌ، إحدى الزائرات كانت تحمل كيسًا لأحد المحلّات، مكتوب عليه بخطٍّ عريض: «الناجي»، غلبتني الدموع، وشملني البِشر، تعلمت في هذه المحنة كيف أتعلَّق بالبِشارات، وكيف أفتح عينَيّ للإشارات، وكيف أنتزع الأمل من كلّ شيءٍ، وكيف أرضى بأقلِّ شيءٍ.

وقد حسُنَ فألنا بالفعل، ونودِيَ على اسمه، ودخلنا، جدار من وراء جدار، وسور يتلوه آخر، وثلاثة تفتيشات؛ ولكننا دخلنا، شعور غريب انتابني في الداخل، إحساس عجيب بالسكينة، كان بعض المعتقلين ينظمون الزيارة في الداخل، ممّا جعل

الجو العام ودودًا وسهلا، كان هذا استثناء، ولم يدُم طيلة المحنة؛ ولكن هذه كانت البداية، لا يخلو مصابٌ على هذه الأرض من لُطف، يوسف في غيابة الجُبّ، وفي أعقاب الغدر جاءته البشرى: «وَأَوۡحَيۡنَآ إِلَيۡهِ لَتُنَبِّئَنَّهُم بِأَمۡرِهِمۡ هَٰذَا وَهُمۡ لَا يَشۡعُرُونَ»، وأنا وسط الأمواج العاتية، أحمل رضيعتي، وأجمع عذاب الانقطاع وعذاب السفر، أراه، بعد كلّ هذا أراه، خرج علينا في ثوب أبيض ووجه بسّام، فقد نصف وزنه، واشتد السواد تحت عينيه؛ ولكنه كان أحلى من القمر، والتقت عينانا من جديد، ضحكت، وسجدت شكرًا لله وسط ذهول الحاضرين، أطاحت الفرحة

ببقايا عقلي، نعم كنت فرحة جِدًا بينما بكى حمايا بشدة، كان يأسى على حال ابنه الطيب المسالم العفيف الذي اقتاده الظلم إلى السجن قهرًا، وكنت أفرح على حبيبٍ قطعه اليأس والطغيان ولكن الله حفظه، ها هو أمامي يبتسم، وينظر لي بعينيه الخضراوين، فأسبر روحه فتعود روحي إلى جسدي من جديد.

احتضن أباه وقبَّل يديه، وقبَّل يَدَيّ، واحتضنني على عجل، ثم حمل مريم طويلًا وبكى، ففجَّر كلَّ مشاعره معها، ثم ضحك لها ولاعبها، أخرجنا الطعام وأكلنا، وطمأننا عليه وبشَّرنا، ثم ناداه أحدهم فخفق قلبي خوفًا «هل انتهت الزيارة؟».

«لا، ولكن تعالي أريك شيئًا».

تعجَّبت، وهل سيريني شيئًا في السجن؟ وهل لنا حرية الحركة داخله، أمسك بيدي، ودخلنا في ممرٍّ طويل مليءٍ بالخيام، وفتح إحداها ودخلنا، خيمة صغيرة بإضاءة خافتة وفرش مرتب أنيق، خلع ملابسي واحتضنني، قد يكون عصِيًا على التصديق، ولكنها كانت، وستظل أسعد لحظات حياتي، في قلب السجن، وفي عمق البلاء كانت أشدَ أوقاتي سعادة، وقد حملتني طيلة 4 سنوات تنقلت فيها بين السجون، وعانيت مرارة الاختفاء، وأنباء الإضراب، وهجمات داعش، وتكدير الحكومة، وحسرة أن تكبر طفلتي يتيمة وأبوها على قيد

الحياة، وخذلان القريب، وشفقة الغريب، وتوسُّلي لأسفلِ خلق اللّه، وإغراقي بالكذب، وطول الشوق، وضيق ذات اليد، وأنين يعقوب يبثُّ حزنه إلى اللّه أمام كثرة العاتبين المنكرين عليه صدق الوُدّ، وعهد الوفاء.

ثم انطلقت صافرة انتهاء الزيارة، فخرجنا، وودعني وأباه، وقبّل طفلته، وطلب منا عدم إرهاق أنفسنا بالزيارة، الطريق طويلة وخطرة، والأوضاع غير مستقرة داخل السجن، فزيارة اليوم قد لا تتكرر على النحو نفسه، وقال لنا: «انتظروني أنتم. الزيارة القادمة سآتي أنا».

ولكنه لم يأتِ، ولم تكن الزيارة الثانية كالأولى، واعتدت على السفر كلَّ شهر مرة، لا شيءَ مضمون، وبعد عام مُنعنا تمامًا من الزيارة، ثم نُقِلَ إلى مكانٍ أبعدَ، ثم عاد، ثم انتقل لبغداد، فكنت أزورُهُ من وراء الأسلاك كلَّ أسبوعين، وقد باع أهله أرضهم، واستدانوا لتغطية نفقاتِ المحامي، وخِدَع الوساطات الكاذبة، والمتاجرين بمآسينا.

تذكر شو كنت تقلي مهما يصير.

انتظريني وضلك صلي الله كبير.

من يومها شو عاد صار عمادا كذا نهار.

ما صار شيّ كتير.

كلّ اللّي صار وبعده بيصير اللّه كبير.

لكن «الكذا نهار» عند فيوز كانوا عندي أكثر من ألف ليلة وليلة.

ولكنها مرت، ذات يوم خرج وانقضت، وحتى أولئك الذين قضوا في السجون، أو من تجرَّعن مرارة الفقد مرضًا، أو قتلًا، أو خيانةً، أو تقلُّبًا، أو هكذا بلا سبب مباشر، كلها مرَّت، لا لم أخرج من المحنة عدمية الفكر والشعور؛ ولكنني أدركت أنها «ساعة من نهار»، أن «هذا الوقت سيمرّ» الحلو منه والمرّ.

بدأت بالفزع ومرارة الحزن، وتوسطها الصبر، وانتهت بالفرج والقوة، وشعرت في هذه المحنة

بنعمة التفاصيل الصغيرة التي تملأ حياتنا، ونغيب عن شكرها والاستمتاع ببهجتها، وأدركت كم كان من البطر طلب الاكتمال في زمن العافية، والتذمر لأقل مشكلة أو عائق، ففي المحنة تعظم في عينك النعم، وتكتسب مهارة التقاط أدقَ المتاح لتصنع منه واقعًا أفضل، في المحنة تتعلم الحياة.

رأيت نفسي في هذه المحنة أبحث في وجوه الناس عن بعض الأمل، في دروب الإنترنت، في كلماتِ وتوقُّعاتِ الغير عن بصيص للحياة، حتى وصلت بعد مرارات إلى أن الأمل جذوتي أنا، رحمة الله بي وحدي في محنتي، وعندما أتشبث

به، وأمتلئ بروعته انطلاقًا من حُسن ظني بربي، فإن الجميع سيدركون أمري من خلالي، ويفهمون واقعي كما أراه، فمن الشحيح النادر في هذه الحياة أن يمنحك أحدهم أملًا، فالناس يميلون لليأس، وقد يميلون للراحة بمصائب الغير التي تسلِّيهم عن مصائبهم.

كل الأوقات المريرة مضت، لم يتبقَّ إلَّا ذكراها، ردَنا الله لخير ممَا كنا فيه، جمع الشمل، وبارك البيت، وضاعف الذرية، وأحاطنا بالطمأنينة، وصبَّ علينا من رزقه وفضله، هل هذه هي النهاية السعيدة؟ لا، هي نهاية أرضية تحمل آياتِ لطف الله وفرجه، ولكن النهاية السعيدة لن

تكون إلّا مع القائلين: «وَقَالُوا الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي صَدَقَنَا وَعْدَهُ وَأَوْرَثَنَا الْأَرْضَ نَتَبَوَّأُ مِنَ الْجَنَّةِ حَيْثُ نَشَاءُ».

وهل معنى هذا أن نموت أحياء، أو أن نطلّقَ الدنيا إيثارًا للآخرة؟

هذا عبث الهازلين، فالوصول إلى الفردوس لا يكون بالهروب، والحياة هناك لن تكون إلّا وصلًا بالحياة هنا، «هنا والآن» هي بداية النعيم، ولكنها رحلة، وقد يكون في بعض محطاتها تعب، وفي بعضها راحة، في بعضها ضجيج، وفي البعض وحدة، في بعضها وصل، وفي الآخر شتات، ولكن تبقى رحلتك ليست كرحلة غيرك، وهذه محطة لا تُنسى في رحلتي، وربما أهم محطاتها، عرفت فيها كيف

أثبت قدمَيّ، وهما ترتجفان، وكيف
يربط الله على القلب، فلا يطير هلعًا،
وكيف تولد الرِّقة من جحيم القسوة،
وكيف أحمي «البسكوتة» بدرعٍ من
حديدٍ إذا لزم الأمر، عفّة وأملًا وصبرًا.

«الرجل العادي» VS «الباد بوي»

الخطوبة

«إيه رأيك الحلق الطويل أحلى عليَ، ولّا القصير؟».

«الاتنين حلوين».

«أنهي أحلى؟».

تفكير طويل أعقبه صمت.

تركت الاتنين، فقدت رغبتي في ارتداء حلقان، قعدت فعلًا 3 سنين ملبستش حلق.

«حبيبي، هو إيه الألوان اللّي بتحبّها أكتر؟»

«بالنسبة لإيه».

«أصلي هنزل بكرة أشتري اللّانجيري، فكنت حابّة أعرف الألوان اللّي بتحبّها؟»

صمت طويل، سرح عقلي أثناءه في عشرات الأسباب، هو زعل؟ المفروض مكنتش أسأله سؤال زيّ ده؟ مش بيحب اللّانجيري؟ مش بيحبني أنا نفسي؟ مفيش سبب عادي قبله عقلي يخليه يجاوب على سؤال لطيف خفيف زيّ ده بصمت الحقول، أنا مسألتوش على الجذر التكعيبي لـ315678!

بعد أسبوع من زواجنا

«تحب نخرج، ولّا نقعد نتفرَج على فيلم سَوا، أو نعمل حاجة في البيت؟».

«سيّان، شوفي إنتي عاوزة إيه»!

«تمام.. خلًينا في البيت، نتفرَج على عربي ولّا أجنبي؟».

«أيّ حاجة»!

بعد شهرين

مصطفى إيه رأيك في البسبوسة؟

«كويسة».

كويسة!

«إيه المشكلة؟».

«بتقول كويسة بطعم وريحة المنيّلة! كنت ارميها في وشّي

أحسن!».

«إنتي مش طبيعية على فكرة»!

«صح المفروض إن كويسة الباهتة الباردة دي كانت تطيّرني في السما!».

«معلش حقّك عليّا المرة الجاية هبقى أرقص لِك عشرة بلدي عشان البسبوسة!».

«لا ترقص لي، ولا أرقص لك، دي آخر مرة هعملها!».

«براحتك»!

«طبعًا براحتي، البسبوسة، والألوان، والأفلام، والعيشة واللّي عايشنها كله سيّان».

اتضحت الأمور أكثر مع الوقت، هذا هو الرجل العادي، لا شيءَ مُبْهِر فيه، وغير قابل للانبهار.

امرأة تشرق فيها الشمس عشرات المرات في يوم واحد؛ بل نبض خلاياها يأبى أن تظلم روحها، تشارك رجلَ الثلجِ القاسي، ثلجيَ القلب، رماديَ العقل، أكثر ما اعتاده الغمَ والإحباط، يحكم إغلاق عقله على أعشار الأفكار، أعشار المشاعر، فلديه دولابٌ متوارَثٌ يحمله فوق ظهره بتفسيرات سريعة قاتمة لم تشرق فيها يومًا شمس المنطق، لم تشرق شمس الحبّ.

لقد تزوجتُ رجلًا بلا ذات، بلا خيارات، يرى بعين غيره، ويشعر وِفْقَ

الوعي الجمعيّ، يخاف أن يختارَ، أو لا يعرف حتى في أبسط الأشياء، ولكن كيف؟ كيف تزوجتْ مجنونةٌ مثلي نمطيًا مثله، تبًا لخيالي الجامح، ولأدبِهِ المستفزّ، لقد بدا لي «ألفا» بصمته الطويل، وعينيه الملوَّنتيْن، وسلوكه الخجول، إنَّه بطل غير عادي، شعرت أن صمته مَهيبٌ كمحيط لا يمكنني الوصول لأعماقه؛ ولكنه لم يكن سوى بِرْكة ماء، ضحلة راكدة، صمته حقيقيٌ، هو صامت من الداخل، وأنا، أنا التي أكل الصمت روحها، فترك لها من الحياة ذكرى.

أنا التي ذَبُلَتْ زهورُها، واكفهرّتْ حديقتها؛ لأنه وضع اسمه على

الأسوار، ملك له وغير معروضة للحياة.

أنا التي قرأت: «لا تحزن» في أسبوع زواجها الثاني.

أنا التي كنت غضَّةً، أمنح الحبَّ، وأفيض من ثقتي على المهزوز، ومن مباهج قلبي في عاديته، من ألوان عقلي على المملول؛ ولكنه لم يعرف سوى أن ينشب مخالبه في روحي، ثم يسكن هكذا، حتى إذا صرخت كنت المجنونة وهو الهادئ، إذا اعتللت كان المغبون، وأنا زوجة رجل صبور.

حطم بصمته، وعاديته، وردود فعله الباهتة، ورغباته الباردة زهو أنوثتي، كنت قادرة على تحمُّل

الكثير، وتقبُّل العيوب، كنت جاهزة بطبعي لكثير من ألوان الدراما، إلَّا «السَّيَان»، أحبُّ كلَّ الألوان إلَّا «الرماديّ».

أبو عيالي

وبعيدًا عن صحراء السَّيَّان، كان مصطفى زوجًا محترمًا، يقوم على بيته بما يرضي الله، وأبًا رائعًا، رُزقنا بـ3 أطفال، أفرغنا فيهم محبتنا، الحياة معه كانت سالمة، ممكن أوصفها بـ «يا نحلة لا تقرصيني، ولا عاوز منك عسل!»، وده ميمنعش إن أحيانًا بيكون فيه عسل، وكام قرصة، طموحاته في الحياة إني مصحيهوش لما ينام، بييجي من الشغل يقعد مع

العيال، ويساعد في البيت وينام، عاوزة أخرج يخرجني، عاوزة حاجة يجيبلي، ما دامت نفسي هادية، وإحباطاتي كامنة، فهو مش عاوز حاجة تانية من الدنيا.

في مرة قالّي: «أنا عارف إنك كنت تستحقي حَدّ أحسن مني بكتير، عارف إني قِفْل، وساعات ببقى جِلْف، اكسبي فيّا ثواب، واعتبريني أعرابي عاوز يتعلم الحبّ على إيديكي».

كلمته دي خلتني أكمّل معاه، مش سهل إن راجل يعرّي ضعفه قدّام مراته، ويحس إنها عالية عليه، ويقولها علّميني الحبّ إلّا لو بيحبّها فعلًا، حتى لو كان حبُّه هادي وأنا مليّت الحب العادي.

ولكن مفعولها انتهى مع صدمة لم تكن في الحسبان، يبدو أن السيد قِفل قد أحبّ!

تعلّق بفتاة جميلة لطيفة تصغره بسنين في إحدى الدورات التابعة للعمل، وجد الفرصة للتمدُّد، وإظهار الخبرة، والشعور بالذات الذي طالما افتقده معي، فأصبح يراسلها على الواتس، ويلاحقها على الفيس، ويبحث عن صور تعبيرية ليضعها لها، ويبالغ في الرَّدّ عليها، ويراسلها باستمرار مختلقًا للأسباب.

كانت الفتاة مؤدَّبة، وعلى الأرجح تعامله كأخٍ كبير؛ ولكنه تحرَّك، ضحكت غيظًا وحطمت كلَّ شيءٍ فوق رأسه، لم تكن الغيرة بقدر ما هو

الأسى. «رضيت بالهَمّ والهَمّ مش راضي بيّا».

ذلك الأعرابي الذي أسكت حسرتي قبل سنين باعتراف الجهل والغشومية، قابلٌ للحب، وقادرٌ على الملاحقة والاختيار.

أنكر تمامًا في المواجهة، فوضعته أمام سجلّ بحثه، وتعليقاته ورسائله، فتشبَّث بأنه لا شيءَ فيها، وأنها في إطار العمل، والتدريب.

وهل يقتضي العمل تبادلَ المكالماتِ ورسائلَ الواتس؟

أجاب بخوفٍ: هي اتَّصلت وطلبت المساعدة.

حاصرته: وهي أيضًا مَنْ بحثت عن نفسها كلَ هذه المرات؟ ووضعت لايكات على صورها؟

صمت، ثم انفعل، ثم هرب، ثلاثيته المعروفة.

تجمَّدَ عقليَ، وتحدَّثَ شيطانيّ: «أنا أحقّ بالحبّ منك».

مصيدة منتصف العمر

«حسام سالم»، مش فاكرة اتكعبلت فيه إزاي، غالبًا من بوست شيَّرته صديقة لي على فيس بوك، دخلت منه على صفحته، صورة البروفايل كانت شديدة الجاذبية، مش عارفة ليه بالظبط رغم إنه مش حلو أوي يعني، يمكن عشان كان

متصوَّر من الجنب كِدة، وباصص للسما، ودخان السجاير طالع من بقه، ودقنه مظبوطة، وشعره مربوط بتوكة، صورته توحي بالثقة واللَّامبالاة، خاصة مع البيو اللّي كاتب فيه:

(والحلو أقوله يا حلو في عيونه. رأيك فيّا ميهمنيش.)!

كان حاطط على صفحته عددًا لا بأس به من الصور، صور بنظرات غامضة، وصور في أوضاع حنونة مع بنته الصغيرة، أو مع الكلب بتاعه، صور مثيرة بيركز فيها على عروق إيده، وحنجرته، وشعره، وهو بيدخن على السرير، صور مع أصحابه وصحباته، صور وهو بيعزف على

الجيتار، وهو بيصوَّر بكاميرا حديثة أو بيغيّر عدستها.

والأهمّ من صوره، الصور اللّي بيشيّرها، والكابشنز اللّي بيكتبها، وتعليقاته على الستات والأحداث، وطريقة ردّه على الناس، وكمية الشتايم اللّي بيقولها عادي، وآراؤه المتمردة على كل شيء، والمشككة في كل شيء، والساخرة من كل شيء.

جواز وطلّق، دين وألحد، مجتمع ورفض، مزيكا بيعزف، تصوير واحترف.

أنا وقعت

كنت أول مرة أعرف إن الإنسان ممكن يرفض شيء، ويعجب به في نفس الوقت، ويخاف من حدّ، ويقع في غرامه، كان على الضفة الأخرى من الحياة يجسد ذلك الحياة البرية التي لم أرها إلّا في «ناشيونال جيوجرافيك».

أدمنت دخول صفحته، والاستماع إلى موسيقاه، الذوبان في صوره، غرقت في تعليقاته، وسكرت من نظرته للحياة، وأصبحت كمراهقة ساذجة تعشق للمرة الأولى.

لم أحبّ أحدًا قبل زواجي، كنت مراهقة مثالية، مجتهدة في دراستي، أمرح وأخرج ولكن لي حدود وضعتها بنفسي لنفسي، ادّخرت كلّ طاقة

الحبّ في قلبي لزوجي، وأحببته؛ ولكنه ذلك الحبّ السهل المباشر الخالي من الدراما.

لم أسمح بصداقة الرجال على «السوشيال ميديا»، وكنت أحظر من يحاول محادثتي فورًا، ولم أضع صورة حقيقية لي أبدًا، الحقيقة أنني حتى هذه اللحظة كنت أتمتع بقدر كبير من الخجل، ولكنّ هاجسًا متصاعدًا بدأ ينهش في عقلي منذ أتممت الرابعة والثلاثين، إحساس مرعب بأنني أنحدر إلى الهاوية، أناقش الأسباب مع نفسي بعقلانية، فلا أجد سببًا لهذه الضجة الداخلية، ولكنّ إحساسي بأنني أغادر الشباب عمّا قريب جعلني كالمجنونة، هل هي

أزمة منتصف العمر؟ غريب، ما زلت في الثلاثينات؛ ولكنني أشعر بكلّ أعراض هذا الجنون، أريد أن أخلع جلدي، وأعوّض ما فاتني، وأتمرّد على نفسي، وأنسفَ إحباطي، وأتداركَ بقية الشباب.

كان حسام صيّادًا ماهرًا، وكنت فريسة مثالية، يرمي هو شبكته باستمرار، يلقي بالطُّعم بصور مختلفة، باختلاف عقليات النساء، وكنت أنا من صاحبات الغواية العقلية، فخفق قلبي لكلامه، وفيديوهاته، وتعليقاته، وأذكر أنني ظللت مبتسمة يومًا كاملًا كالبلهاء بعدما تلصصت على صفحته، فوجدته افتتحها ببوست: «لا تكتمل أنوثة المرأة إلّا في الثلاثينات.»

وسألته إحداهن في التعليقات، وماذا عن المرأة في الخمسين، فأجاب باقتباس درويشي: «مانجو مقشرة ونبيذ معتّق»، مع صورة لمونيكا بيلوتشي.

«يا له من مثقفٍ ذكيّ!»، حدّثني قلبي.

يدقق في تفاصيل المرأة، ويبدو مشتعلًا لغمازتها، وكعبها، ويسرد تفضيلاته في جسدها وصوتها وإغوائها، كنت أشعر أنه يصفني، أنني أنا أنثاه!

ومن فيس بوك إلى تويتر، ومنه إلى إنستجرام، أصبح يحتلُّ خيالي، وتحوَّل إلى نزهة عقلي من ضجيج، وإحباط الحياة من حولي، فأنا أمٌّ

مثقلة، وزوجةٌ قديمة، لا شيءَ في الحياة سوى الضغوطات والمَهامّ، وقليلٍ من الترفيه الفقير.

تحوّل شعوري تِجاه مراهقتي، وشبابي من الشعور بالتميُّز لمسلكي الجادّ، إلى نقمة على أدبي وتربيتي وحدودي، وتحوّلت نقمتي على زواجي إلى افتتانٍ بذلك الحصان البَرّيّ الجامح على النقيض من زوجي، على النقيض في كلّ شيء، هذا جَدْيٌ ترابيّ، وذاك أسدٌ نارِيّ، هذا عملي بارد متوقَّع محافظ، وذاك واثقٌ متمرِّدٌ مغامرٌ، هذا يراعي الأخلاق والتقاليد، وذاك يحبُّ أن يصدم الناس، هذا هادئ الملامحِ أزرقُ العينين، وذاك حادُّ القسماتِ أسمرُ،

هذا عندما حاول أن «يشقط» فتاة مالت نفسه إليها حدَّثها على استحياء، وذاك يشقط وهو مش واخد باله، يشقط كما يتنفس ولا يبالي، هذا يرى بعين الاعتياد، ويحكم وِفْقَ ذوق الناس، وذاك يدقق في التفاصيل، ويضع فلسفته الخاصة في كلِّ شيء، هذا هو الرجل العادي، وذاك «الباد بوي» اللِّي بيقولوا عليه.

هكذا رأيتهما بعين النقمة، والافتتان في سكرتي.

وبعيدًا عن زحام فيس بوك، أنشأت حسابًا جديدًا على الإنستجرام، ولأول مرة نزلت صوري، عملتله فولو، وعمل فولو باك على طول، ولايك على صورتين، بعد ساعة

كان باعت لي على الدي إم، فيديو دقيقة وهو بيلعب على الجيتار أغنية: جفنه علم الغزل، وكتب بعدها، شكرًا للعيون الحلوة.

قلبي كان هيقف من السعادة والخوف، ردّيت بابتسامة، وبعدها:

«صوتك حلو، وعزفك أحلى».

«بتحبّي الجيتار؟».

«جدًا، طول عمري كان نفسي ألعب عليه.».

«وليه لأ؟».

«خلاص هرمنا، أحاول أعلم ولادي.».

«هههههه مش معقول، همّا اللّي في الصورة دول ولادك مش إخواتك؟».

«شكرًا على المجاملة المفقوسة.».

«لا والله مش بجامل، مبحبش ومبعرفش».

صمت.

«لو عاوزة أعلّمك هتنسي الدنيا، وإنتي بتلعبي عليه.».

«ياريت».

«ساكنة فين يا سارة؟».

وشّي احمرّ، لما شفته كاتب اسمي اتخضّيت، حسّيت إنه قرّب منّي جدًّا، خاصة بسؤاله، وسرعته المهولة، حسيت إنه حاسس بخجلي وارتباكي، لقيت نفسي مضطرة أهرب.

«في مصر الجديدة بس مسافرة دلوقتي!».

«لمَّا ترجعي كلِّميني، أنا مش بعيد عنك، ممكن نتقابل في مكان قريب.».

جريت على أوضتي، قفلت على نفسي، وقفلت النور، ارتفاع جنوني للأدرينالين، خوف، ولذَّة، وتشوُّق، وإحساسُ بالذنب.

هعمل إيه؟ هتمادى؟ هوافق إني أقابله؟ مقدرش أعمل كده فيه ألف حاجة تمنعني، أولهم نفسي.

هطنِّشه؟ هبقى خسرت وجوده تمامًا، ده مش الشخص اللِّي ممكن أتجاهله ويفضل موجود على الهامش.

لقيت نفسي بكلم مصطفى.

«قربت تيجي».

«آه، خير في حاجة؟ إنتو كويسين؟».

«إحنا تمام الحمد لله، تيجي بالسلامة.».

لما رجع لقاني متكوّمة على السرير، بصّلي بقلق: «مالك؟ لونك مخطوف ليه؟ إنتي تعبانة؟

«شوية كده.».

«سلامتك.».

«ممكن تاخدني في حضنك؟».

«طبعا».

احتضنني حتى نمت، ولأول مرة منذ تزوجنا أدرك حجم الأمان في حضنه، كان حضنه دافئًا جِدًا، شعرت

في هذه اللحظة أن حضنه هو أكثر بقاع العالم سكينة.

نيران صديقة

في اليوم التالي كنت في حاجة ماسّة إلى رانيا صديقة عمري، ورفيقة الطفولة، وحاوية الأسرار.

حكيت لها القصة كما أريد، كانت في داخلي ضخمة؛ ولكنني عندما حكيتها شعرت بضآلتها؛ ولكن رانيا التي كانت دومًا مرآتي الصادقة، قالت بقلق:

«إنتي عارفة إني مش هوعظك، ولا هقولك أد إيه إنتي محظوظة بجوزك، ولا إن كل علاقة في الدنيا فيها حتة ناقصة، والحتة الناقصة مع

مصطفى بسيطة، وإنتي عدتيها، ولا إن اهتمامه بالبنت بتاعت الكورس مش مبرر للخيانة، وإن اللّي بيخون بيخون ربنا قبل ما يخون شريكه، أنا هقولك حاجة واحدة، خلّي بالك عشان متخسريش نفسك».

«وريني كده الأكونت بتاعه».

أبدت استغرابًا شديدًا، وقالت لي: «إيه ده؟ ده مش ستايلك خالص، ولًا إنتي صدقتي الشويتين اللّي هوَّا عاملهم».

دافعت عنه بقوة: «لأ مش شويتين، بصّي هوَّا ممكن يكون قليل الأدب وغريب الأطوار، بس هوَّا حد عفوي وصادق مع نفسه».

«يا سلام!».

«متحاوليش تكرّهيني فيه وخلاص، إنتي كلامك مقنع بصرف النظر هوَّا حلو ولَّا وحش».

بعد يومين قررت أعمل تغيير في البيت، وفي نفسي، غيرت تسريحتي ومكياجي، ولبست حلو، رجع مصطفى من شغله، ولم يلاحظ كالعادة! عادي، تتساوى عنده الأمور كالعادة، حسيت بخنقة وغيظ، فضلت أتصور قدامه زيّ المجنونة، اتصوَرت عشرين صورة، واخترت أحلاهم ونزلتها فورًا على الإنستجرام، مضطرة أخلّي غيره يسدد فواتيره.

حسام عمل لايك، ودخل على الدي إم يسألني رجعت ولا لسّه؟ قلت له: رجعت.

قال لي: لو تحبِّي نتقابل في كافيه.

وافقت.

إيه ده أنا وافقت؟

آه.

هقابله فعلًا؟

آه.

اجتاحني حزن؛ لكنَّ الغيظ، وإلحاح نفسي كان أقوى.

ثاني يوم مصطفى أخد الولاد كالعادة عند مامته في يوم الأجازة، وأنا اعتذرت بإني تعبانة، هيقضوا اليوم كله عندها، قمت ولبست وجهزت نفسي بالصورة اللّي دايمًا كانت في خيالي لمَّا أقابل حسام،

قلبي كان مقبوض، مكنتش حاسّة بأيّ سعادة،

قرَيت بالعربية، وشفته قاعد منتظرني، شكله على الطبيعة حسّسني بغرية، نزلت من العربية، وقرَبت من الكافيه، رجلي اتجمّدت في مكانها، حسّيت إني مش قادرة أتحرّك، فقت على صوت كلاكس عربية، وصاحبها بيصرخ فيّا: «إيه الوقفة اللّي إنتي واقفاها دي؟!».

لقيت نفسي بجري على عربيتي، ركبتها وشقت على أعلى سرعة، حسّيت إني هموت من الخنقة، بكيت لدرجة إني مكنتش شايفة قدّامي، لكن فضلت سايقة حسّيت إني عاوزة

أهرب لأبعد نقطة في الأرض، لأبعد نقطة عن نفسي.

قرَّيت من البيت، ورنَّ تليفوني:

«إنتي فين؟ أنا قدام بيتك»!

«خير يا رانيا مقلتيش إنك جاية، 5 دقايق وهكون عندك».

«مال صوتك يا سارة؟!».

«ولا حاجة».

أول ما شفت رانيا اترميت في حضنها، وهي استغربت من الشياكة الفائقة اللِّي أنا كنت فيها، والمكياج الملخبط من البكاء.

دخلنا، بصّتلي وقالت: «هو إنتي كنتي عند بتاع الجيتار؟».

قلت بصوت متقطع: «رجعت في آخر لحظة، رجلي اتجمِّدت وهربت».

ابتسمت بارتياح: «يعني مقابلتيهوش».

«لأ».

«الحمد لله».

«بس جوايا نار!».

«إيه ندمانة إنك ضيعتي المقابلة الخطيرة؟».

«مش عارفة، حاسّة إني كارهة نفسي، حسِّيت بغربة لما شفته، وحسِّيت بغُربة عن نفسي».

طلّعت من شنطتها ورقة، وقالت لي: «طيِّب بمناسبة الحدث السعيد ده، أحب أعرفك على عازف الجيتار

العظيم حسام سالم، اللّي مسموش حسام سالم ولا حاجة، اسمه إبراهيم عبد السلام!

ضحكت، قالت لي: لا والله مش بهزّر، دي صورة بطاقته.

مسكتها بتعجب «أيوه دي صورته، بس إزاي؟!».

«إيه العجيب يعني يا سارة؟ لا أول ولا آخر مهازل السوشيال ميديا، إحمدي ربنا فيه ناس بتكتشف إنها كانت بتكلم بنت، ويطلع راجل أو العكس، إنتي كنتي فاكرة نفسك بتكلمي جيمس بوند وطلع عيّل سرسجي!».

«سرسجي إزاي؟!».

«عيّل مالوش لزمة، وعايش على المصالح اللّي بيطلعها من الشقط، حتى الجيتار ده واحدة جابتهوله وعلّمته».

«وإنتي عرفتي منين؟!».

«طليقته تبقى أخت صاحبتي، ودي مصيبتها كبيرة، اتعرّفت عليه في ميدان التحرير أيام ثورة يناير، البنت من عيلة كبيرة، ومتربّية وقلبها جميل، مثّل عليها دور الشاب المصري الأصيل المكافح الثورجي، وقبلت تتجوزه وهو عاطل ونص أهله ردّ سجون.

«إنتي أكيد بتهزّري يا رانيا، ده عنده مشاهير على صفحته، وفوق الـ20 ألف فولور».

«وإيه المدهش في كده؟ الوصفة سهلة يا سارة: الشويتين اللِّي بيعملهم، وطريقته الوقحة، والنصب بتاعه إنه يجيب اقتباس من هنا، على أغنية، على صورة وكلمتين يبينوا أد إيه الواد عميق، وصورة متفلترة يعمل فيها الواد الغامض، وآراء شاذة وغريبة يعمل بيها صيت لنفسه!».

انتابتني موجة من الضحك، أتبعها بكاء شديد.

فلاحقتني رانيا بنيران: «ممكن علاقة اليوم الواحد يكون فيها شغف مش موجود في زواج بيدوم سنين، وبيتعرض للملل والاعتياد؛ لكن العلاقة دي بيبقى بعدها ندم العمر.

الحب مش كلام محفوظ في أوقات محدودة، أو هدايا بلون مخصوص، وتصنُّع ومبالغات أمام الناس.

الحب رحلة عمر بحلوها ومرّها، ووفاء بالعهد في الوصال والبعاد، وتقبُّل للمزايا والعيوب، إن كل شريك يبقى مرآة للتاني تعكس أفضل ما فيه، ويكتشف معاه السكن.

الحب تسامح، وإقالة للعثرات، وبهجة بناخدها من وسط دوامة التعب والهموم، فتهون كلها، وتفاهم يُغني عن الكلام الطويل.

أما عن الرجل العادي، فإن عاديته هذه كانت مميّزة جدًا، كل ما في الأمر إنه اختار أنثى واحدة لم يتدرّب

مع آلاف غيرها على التصنُّع والصيد، اختار أن يتميز بنظافة اللسان في عالم أصبحت البذاءة فيه «أمر واقع».

أخو البنات

«مفيش علاج يا مدام عشان لا تتعبي نفسك، ولا تتعبينا معاك»!

لم تكن المرة الأولى التي يواجهني بها أحدهم بهذه الكلمات، يلقيها على اعتبار أن الحقيقة مهما كانت مُرَة، فإنها أفضل من التعلق بأمل كاذب؛ ولكن ما معنى هذا أن أنظر في وجه ابني كل يوم بلا أمل، أن أكابد معه الحياة بلا قلب؟!

وُلد «عمر» قطعة من القمر، وتوافد المهنئون من البلد، ابتسمت لي حماتي لأول مرة في حياتها، وأخيرًا أصبح لابنها المسكين أبي

البنات سندًا وظهرًا، يحقُّ له الآن أن يرفع رأسه، فلا يتوارى من القوم، ولا يدسُّ وجهه خجلًا، لا عجب، فولد بعد أربع بنات ليست حدثًا عابرًا في الصعيد، فكل أدبيات التغيير، ودعاة التنوير، والخطاب الديني، والدراما؛ بل والواقع نفسه الذي يثبت كل يوم أن: «البنت بتشدّ الضهر وتسنده» كتير أكتر من الولد، لا يمكنها تغيير هذه العقيدة، مع استثناءات قليلة، ومنها زوجي.

لم يكن يحيى يداريني أو يُصبّر نفسه؛ بل كان يحب بناته ويفتخر بهنّ بصدق، كان متصالحًا مع نفسه بقدر بساطته وصفاء قلبه، كانت أمه من أشد النساء عنصرية على هذا

الكوكب ضد بنات جنسها، تضطهد المرأة، وتراها ناقصة وقليلة وضئيلة وعالة على الرجل، فجاء أبناؤها الذكور شديدي الغشم والعنجهية والكسر لشقيقاتهم، ما عدا يحيى، كان حنونًا ومقدّرًا ومُحترمًا للمرأة، يفهم جوهر دينه، ويدرك العدل كمقصد رئيسي فيه.

كان «يحيى» مكتفيًا ببناته، مشفقًا عليّ من حمل جديد؛ ولكنني أصررت، كنت أتمنى الولد، ليس لنقص فيما وهبني الله، فقد أنعم عليّ بأربعِ زهراتٍ جميلات صحيحات ذكيات حنونات، أرى فيهن كل الحب والحياة، ولكنني في النهاية ابنة ثقافتي، أمي وحماتي وسلفاتي

وأخوات زوجي والجارات وصديقات المدرسة وبائعات الخضار في الشارع كلهن يدعين لي «بالأخ لبناتي»، وكأن بناتي هكذا بلا أخ عاريات في الطرقات، وكأنهن بحاجة إلى محرم في رحلة الحياة، رغم أن غالبية هؤلاء النسوة عانين الويلات من «الأخ» الذي كثيرًا ما يأكل الحق في الميراث، ولا ينصر في الشدة، ولا يصل في الرخاء، وهنّ اللاتي يصلن ويخدمن ويتحملن ويبقين الود.

وجاء «الأخ» لتكون بناتي سندًا له، وتحمله أيديهن، ويسهرن على راحته، فقد كان مصابًا بـ «شلل دماغي».

سرعان ما تحوَّلت الفرحة إلى صدمة، ولكنني صبرت عند الصدمة الأولى، وتشبثت بالأمل، كان الأطباء يتعاملون مع أملي على أنه «إنكار»، وكنت أصِرُّ على أنني لا أنكر؛ ولكنني أؤمن، أؤمن بأن الله هو الشافي، وأنه ما أنزل داءً إلَّا وجعل له دواءً.

لم أكن يومًا فتاة مدللة، تعودت منذ صغري على التعب والتحمل، ولكن أن يكون على كتفي رضيعٌ، وفي يدي 4 طفلات، وفي قلبي جبال من الهَمّ والخوف، مع ضيق حال زوجي، وشماتة الكارهين، وشفقة المحبين، فقد كان هذا يفوق احتمالي، ولكن لم تكن لَدَيَّ رفاهية الاكتئاب، كنت مجبرة على الصمود.

أين أنت يا اللهُ!

أنا خائفة، تائهة، امتدَّ الشكُّ إلى قلبي، واليأس إلى روحي، فأين أنت!

أين نورك يا نور السماوات والأرض!

أين قربك، أين رحمتك.

عاد من العمل، فوجدني في حال غريبة، قلت له متحاشية النظر إلى عينيه، سأخرج لأشمَّ الهواء قليلًا، العيال أكلوا، وعمر غيرت له، وأكلك في المطبخ.

«استنَّي يا رقية، هخلِّي أختي تيجي تقعد معاهم، وننزل سوا».

«بالله عليك يا يحيى محتاجة أبقى لوحدي شوية، مش هتأخَّر».

4 شهور من العناء، لا أكاد أنام، رضيعٌ باحتياجات خاصة، و4 طفلات يحتجن إلى كل ثانية في يومي، يحتجن نظافة، وطعامًا، ودراسة، واهتمامًا، وحنانا وتربية وحماية.

لو أني بجوار أهلي في البلد ربما كان الأمر أهون، ربما استطعت على الأقل أن أنام، فالأطفال يلعبون هناك بأمان، أما هنا فنحن حبيسو الجدران.

ولكن لا، مؤكد أنني هنا أفضل، يكفي أنني لا أستمع إلى عبارات العزاء، وأسئلة المتطفلين ليل نهار.

ومشيت، سرت على غير هدى، كنت أهرب، من نفسي.

تعبت قدماي، وشعرت بالبرد، وفجأة سمعت الأذان، تعجبت منه في

البداية! استردَّني من غيبوبة روحي، سرت نحو الصوت، ودخلت إلى المسجد، وتفجَّرت عيناي، أخيرًا بكيت، تشققت قسوة قلبي الإجبارية.

بعد الصلاة استندت إلى حائط، وأغمضت عيني، وسمعته في قلبي:

تبحثين عني؟ وهل تركتك يومًا؟ تبحثين عني، وأنا أقرب إليك من حبل الوريد؟

يغلبك اليأس وأنت محاطة بالنعم والرحمات؟

هل يبدو لك الناس كثر، أنا أجمعهم ليومٍ لا ريبَ فيه، أرزقهم وأهديهم.

هل يبدو لك الكون واسعًا، أنا أطويه كطَيِّ السجلّ للكتب، أنا أعيده كما بدأته.

هل يبدو لك الهمّ ثقيلًا، أنا ألطف بك، وأمدّك بمددي، وأعينك عليه. لا أذكر أنني بكيت يأسًا منذ ذاك اليوم.

خرجت من المسجد بعزم جديد، لا يمكنك الهروب من قصتك، والجزع من أقدراك لا يغيرها، يمنعك من رؤية اللطف الخفيّ في كلّ شدّة، يلهيك بالشكوى عن اقتناص الفرص.

في كلّ شدّة باطن فيه الرحمة، وظاهر من قِبَلِهِ العذاب، ظاهر من عناء، وباطن تسري فيه روح الحكمة والوصل.

«مدد يا الله»، أدمنت هذا الدعاء، اختصر ما في قلبي، وجمع سؤالاتي.

وقد أمدَّني.

وأول المدد هو أن ترى المحنة من جديد، أن تبصر جوانبها من وراء اختناق روحك في تفاصيل الهَمّ.

أنا أمٌّ، حزينة على طفلي الذي تمنيته سليمًا قويًا سندًا؛ ولكنه مخلوق لله، وهو يخلق ما يشاء ويختار، إن شاء أن يختار ابني للجنة، ويعافيه من حساب الدنيا وفتنتها، ويجعله لي شفيعًا، فهو غالب على أمره.

وإن شاء أن تكون بناتي سندًا لأخيهن، وأن يصبحن مثالًا على قوة الأنوثة حبًا وصمودًا وعطاءً، فماذا

سأفعل أنا؟ أعاند أن تسري حكمته فينا، أم أكون لها.

وقد كنت بالمدد لها.

تتبعنا كلَّ خيط يمكن أن يكون فيه شفاء عمر، ثم تطويره وتحسين حاله، يكبر ويبتسم، ويشعرنا بفهمه وتجاوبه؛ ولكنه على حاله في فراشه، خروجه صعب، ومراعاته تحتاج لجهودنا جميعًا.

وكَبُرَتِ البنات، وانتبهت مبكرًا إلى أن التركيز على عمر قد يضيع حقهنّ، فحاولت، وساعدني يحيى، وكبرن بسلام نفسٍ وتفوّق، كبرن على التعاهد بحب عمر ورعايته، والبحث عن كلِّ ما قد يفيده.

وترك يحيى وظيفته، وباع أرضه الصغيرة، وفتح محلًا للألبان، ثم توسّع، وتضاعف، يصرُّ هو دومًا على أنني كنت السبب في الفكرة ونجاحها، وأنا أعلم أن سكينة قلبه ورضا عينيه جعلهما لي الله عبورًا لأحزاني وضيق صدري.

يجاور حاد البصر الكفيف منذ الولادة في عتمة القبر، ويُهال التراب على من حاز الميداليات الذهبية في مسابقات الجري تمامًا كما يُهال على القعيد، الكل يضحك ويبكي، ويموت ويحيا، وكان عمر قطعة من الجنة في بيتي، أنظر إليه فأمتلئ حبًا ورحمة.

شَرَفٌ آيلٌ للسُّقوطِ

14 عامًا أعمل فيها ليل نهار، وأجمع القرش على القرش، أمشي المسافات الطويلة حتى تئِنّ قدماي لأوفر ثمن المواصلات، وفي مخيّلتي حلم، حلم جميل بعيد جعلني أتحمل كل الصعاب، أن يجمعني بابنتي بيت في منطقة جيدة، نغلق بابه علينا وننعم بالهدوء والحرية.

تزوجت وأنا في الثامنة عشرة، أنهيت الدبلوم وتزوجت جاري بعد قصة حب مراهقة، كان وسيمًا مرحًا سهل الطباع، ينتظرني أمام المدرسة الثانوية، ويحاول أن يفتح معي

حوارًا، ويظل يلاحقني حتى نقترب من البيت بزعم أنه يحميني، عام كامل لم يتخلف يومًا عن الانتظار، ولم أرضخ لتوسلاته، كان إصراره يرضي غروري، وأتباهى به أمام زميلاتي، فرغم أنني لست أكثرهن جمالًا؛ ولكن هناك مَنْ يُحبني إلى هذا الحَدّ.

وفي الإجازة أرسل لي خطابًا مع أخته الصغيرة، لا أدري حتى الآن هل كتبه بنفسه أم نقله من مكان ما؛ ولكنه كان ساحرًا جِدًّا لدرجة أنه نجح فيما فشل فيه وقوفه المتواصل أمام المدرسة، وافقت على لقائه، وبدأت القصة.

أفقت من الحلم سريعًا، لم يكن طارق سيئًا، ولم أكرهه أبدًا؛ ولكنه لم يكن يصلح للزواج، كان عديم المسؤولية إلى حَدٍّ يفوق احتمالي، لا يستقرَ في عمل لأكثر من أسبوع، وينفق المال على مزاجه وأصدقائه، ويكذب في اليوم ألف كذبة، حملت وظننت أن شعوره بأنه سيصبح أبًا عمّا قريب سيغير طبعه؛ ولكنه ازداد سوءًا، أبحث له عن عمل، فيذهب مرة، ثم يخدعني ويذهب للعب أو السفر مع رفاقه، صار البيت قاحلا، أنهكني الجوع، والصدمات، والوعود الكاذبة، وخفت على ما في بطني، وبينما أنا في الطريق إلى بيت أمي أغمي علي، وحملني أهل الحي إلى

بيتها، وعرف أهلي ما كنت أخفيه عنهم قرابة عام، وأقسمت أمي ألَّا أعود إليه حتى يتغير ويستقر في عمل، ويدفع إيجار البيت، فوعد وأخلف، ووضعت طفلتي ولم يأتِ، تهرّب حتى من ضغط أهله، ولم يَرَ وجه ابنته إلّا بعد شهور.

سارت الأمور نحو الطلاق، عثر عليه إخوتي، واحتدّ الحديث بينهم ووصل إلى الشجار، فألقى بيمين الطلاق، لتبدأ رحلة اللجوء، سرعان ما تحوَّل إحساسي في بيت أهلي بعد الطلاق إلى كوني ضيفة، ضيفة ثقيلة مستديمة، طيبة أبي وأمي، لم تمنع شعوري بالثقل، كانت خطوات طفلتي محسوبة عليها، ولعبها واستكشافها

الطبيعي لما حولها تخريبًا وإفسادًا، خاصة وأننا عالة عليهم، استدان أبي ليزوجني، ولكنني عدت إليه سريعًا ومعي طفلة، لنزيده رهقًا بمصاريف مضاعفة، وضيق في المكان.

أتمت «سلمى» عامها الأول، فبدأتُ العمل، فأنا خريجة صنايع قسم تجميل، ومنذ طفولتي أعشق كل ما يتعلق بالتجميل، كان حظي في العمل أفضل منه في الزواج، وسع الله رزقي، فتحملت نفقاتي ونفقات ابنتي، وشاركت في مصروفات البيت، وساندت إخوتي عند الحاجة، فخف شعوري باللجوء، ولكن بقي الضيق وسوء المكان الذي لم أرد لابنتي أن تكبر فيه، لم يكن بيدي حيلة سوى

أنني أخرج معها مرتين في الشهر، إن كان معي وفرة من المال اصطحبتها إلى مطعم جميل، وفسحة رائعة، وإذا لم يكن معي كنا نتمشى على النيل ونأكل الذرة المشوي، كانت هذه الفسحة النصف الشهرية أجمل شيء في حياتنا، والوقت الوحيد الذي نقضيه سويًا بدون مقاطعات ومنغِّصات.

استأجرت محلًا في مكان حيوي، وبدأ عملي الخاص، وازدهرت أموري، وأصبح الحلم أقرب، كان بإمكاني أن آخذ شقة في مكان متواضع، أو أن أسكن بالإيجار، ولكنني انتظرت حتى أمتلك بيتًا يليق بطفلتي التي كانت كل حياتي.

عثرنا على الشقة، واسعة جميلة، تحتاج إلى بعض التجهيزات، ولكنها مثالية، تقع في بناية حديثة، في شارع هادئ نظيف تحيطه الأشجار، ولم تصدق طفلتي التي كانت تخطو نحو المراهقة أننا سننتقل إليها، وأنها ستكون ملكنا، قالت لي بعفوية: «الآن يمكنني أن آخذ الدرس في بيتي، وأن تزورني صديقاتي».

كنت أعلم أنها تستحي من بيت أهلي، وأنه لا مكان لها لتستضيف فيه أحدًا.

الآن سننام دون أن توقظنا معارك أخي وزوجته في الغرفة المجاورة، والآن سأشترك لها في النادي القريب، وسنطهو ما نشاء وقتما نشاء دون

رقيب، وسنتكلم دون تورية وضجيج، الآن سنصبح أنا وهي أسرة.

بدأت في التجهيزات، وأخبرت أمي أنني سأنتقل قريبًا، ودخلت في جمعية كبيرة حتى أتمكن من إنهاء ترتيبات الانتقال، وإعداد البيت للسكن، كان عليّ أن أجهزه بالكامل، فلم يتبقَّ شيءٌ من أجهزة، وأثاث بيت الزوجية، باع أهلي بعضها، واستخدموا البعض الآخر.

كنت أقف مع العمال بعد انتهاء عملي، أو أترك المحل في رعاية صديقة لي حتى لا أنتهي من مماطلة الصنايعية، وأتقي أخطاءهم، لم يفكر أيٌّ من إخوتي أن يقدم لي مساعدة، أو حتى يعرضها، عذرتهم جميعًا،

فبين المطحون في عمله، والمشغولة في بيتها.

وخلال تواجدي المكثف في الشقة تعرفت على بعض الجيران، كل الشقق تقريبًا لأسر، معاملتهم ودودة في غير تدخل وكثرة سؤال، الحُلم الذي طالما داعب خيالي، حرية العيش بعيدًا عن أنوف الفضوليين.

وكأنه يوم العيد، حملنا حقيبة ملابسنا، وذهبت مع سلمى إلى بيتنا الجديد، كنت قد أعددت لها احتفالًا صغيرًا، بالونات وورود وتورتة، دخلنا وسجدنا لله شكرًا، احتضنتها بقوة، وظللنا نقفز من السعادة، كانت هذه بكل تأكيد أجمل لحظات حياتي، نسيت عناء السنين، وتجرع الإحباط،

غمرني الحُلم، وبدا كأن الأيام صالحتني أخيرًا.

كنا متلهفتين على النوم الهادئ، ولكننا لم نستطع، ظللنا نتحدث ونضحك ونرقص ونقفز حتى غلبنا النعاس مع شروق الشمس.

طرقات عنيفة وصراخ على الباب، لم أدرك لدقائق هل هو حلم أم حقيقة؟ استعدت وعيي، فقمت بسرعة وقلبي يكاد يقف من الفزع، لم يكن لَدَيّ شكٌ في أن كارثة وقعت في البناية، حريق أو ماس كهربائي مثلًا، فتحت الباب فوجدت «عادل» أمامي، أخي الذي يصغرني بعام واحد، وتقاسمنا العيش طوال العمر

تقريبًا، فقد تزوج في بيت أهلي الذي عُدت أنا أيضًا إليه سريعًا.

«خير يا عادل أمك وأبوك كويسين؟».

لم أكد أنهي جملتي، حتى بدأ يصفعني بشكل متلاحق، خرجت سلمى مفزوعة، وصرخت: «في إيه؟»

ملّ من الصفعات، وبدأ يلكمني في وجهي وجسدي، وحاولت سلمى أن تمنعه فصفعها وسقطت، حاولت أن أقاومه، فجذبني من شعري إلى الخارج، وحاولت أن أعود إلى البيت بكل قوتي خوفًا من الفضيحة، فاشتد هياجه، وعلى سلالم العمارة بدأ

يدفعني بقدمه، رأيت دمي يسيل أمامي، ولم أشعر سوى بسخونة شديدة في جسمي كله، ولكنني شعرت بالانسحاق التام على وقع سبابه واتهاماته، نعتني بكل أوصاف الدناءة والقذارة، لم يترك لفظًا نابيًا، أو اتهامًا إلَّا ألصقه بي، قذفني في عرضي، وحطم شرفي أمام ابنتي والجيران، الذين حاولوا إيقافه، فقال لهم: «محدش له دعوة، أختي «....» وهربيها، جاية تقعد في شقة لوحدها عشان تنت... براحتها! ومش بس كده دي واخدة البت معاها كمان، لا يا ختي، إنتي متطلقة، يعني شرفك همّ على قلبنا، واتنيلتي جبتي بنت، هنرجعها لأبوها كفاية علينا إنتي».

لا أدري بالتحديد كم ظل عقلي متجمدًا، ولا كيف استطاع الجيران إنقاذي من بين يديه، أفقت في المستشفى كان لَدَيّ ارتجاجٌ في المخ، وثلاثة جروح يجب خياطتها أحدها في الرأس، انتبهت بعد فترة إلى وجود زوجين من جيراني الجدد معي، اصطحباني إلى المستشفى، وألحّا عليّ في عمل محضر لأخي، ولكنني كنت غير قادرة على التركيز أو الرّدّ، حتى الحدث نفسه بدا لي غائمًا، وكأنني بين الحلم واليقظة.

أعاداني إلى البيت، كانت آثار دمائي باقية على السلالم، دخلت فوجدت سلمى غارقة في البكاء مع سيدتين طيبتين من الجيران الذين

تعكر صفو هدوئهم مع أول ليلة لوجودي بينهم.

انفردنا من جديد، ولكن شتّان، قبل ساعات كنا نقفز فرحًا قبل أن يتحول الحلم إلى كابوس، والفخر إلى خزي، بكينا طويلًا، وددت لو أبكي حتى الموت، أبكي عجزًا وحزنًا وغضبًا، أبكي على «ظل الراجل» الذي كان هجيرًا أضاع زهرة شبابي، وذهب ليتزوج من تكبره بعقود لتنفق عليه متجاهلًا أن له ابنة لم تعرف معنى الأب، وأبكي على الأخ السند الذي جاء يحمي شرفه، فانتهك حرمات الله، وقذف شقيقته بالبهتان، وفضحها، وعرّاها، وكسر عظمها

وكرامتها ونفسها، فقط لأنها نجحت فيما لم ينجح هو فيه.

أفقت من البكاء على طرق الباب، صرخت رعبًا، وقلت لسلمى: «سأتصل بالشرطة».

جاءني صوتها من وراء الباب: «افتحي يا ناهد أنا أمك».

جاءت أمي حاملة حقيبة ملابسها لتنفذ أوامر حارس الفضيلة بأن تبقى معي حتى أعود، وإذا رفضت العودة فلتبق أمي، وليتبعها أبي، وربما يأتي هو وزوجته وأطفاله أيضًا للاطمئنان على شرفي الآيل للسقوط!

محرم للحياة

أشقائي الذكور الثلاثة كانوا يطلبون مني المال باستمرار، وغالبًا لا يردُّون ما اقترضوه، وكنت أُعطيهم برحابة صدر، أحبهم وأقدر صعوبة ظروفهم، ورغم أنني أُقتر على نفسي حتى أدخر، ولكنني لم أتضايق أبدًا من مساعدتهم، كان عملي وكَدِّي في هذه الحياة سندًا لهم، أيام الأعياد التي كنت أقضيها في عمل متواصل وأصل الليل بالنهار، وتحرم ابنتي من أمها فيها، لم تكن تشكل مشكلة لهم، سهري في المحل، والزيارات المنزلية التي كنت أذهب إليها أحيانًا، لم تقلقهم على شرفي الهشّ؛ ولكن أن أنتقل إلى بيت نظيف، وأنعم باستقلالي مع ابنتي لأول مرة في

حياتنا، فهذا ما أطار النوم من عيونهم، وعلى الرغم من أن رحيلي عن البيت كان أمرًا إيجابيًا لعادل، مساحة أكبر له ولأطفاله، وتمهيدًا لبقائه فيها وحده في المستقبل، ولكن غيظه، وأفكاره غلبت عليه، والأهم «كلام الناس».

أقنع عادل أبي وبقية إخوتي أن انفرادي وابنتي في منزلنا الجديد يعني حتمًا أنني لوّثتُ اسم العائلة العظيم في الوحل، فالمرأة في معتقداته منحرفة بالفطرة، وإذا كانت مطلقة تضاعفت سهولتها، واحتمالات سقوطها، فليس لديها ما تخاف عليه.

واجهتهم بجنون: أنا منذ 14 عامًا مطلقة، أفنيت سنيني في العمل

ورعاية ابنتي، عندي محلي الخاص، وأذهب وأعود وقتما أريد، لا رقيب عليَّ إلَّا الله، والآن ما أقلقكم هو أن أستقلَّ مع ابنتي في بيت وحدنا!

كانوا بلا منطق، وعندما تنهار الحجة يعلو الصوت، وتكثر التهديدات، صرخ عادل كالثور الهائج: «مالناش فيه، الكلام ده خليه لنفسك، مش هنسيب الناس تاكل وِشّنا ويتكلموا علينا في الرايحة والجاية».

استجمعت كل غضبي وقوتي وصرخت فيه: «لا، إنتا اللّي خلّي الهبل ده لنفسك، وابقى فكر تقرب من بيتي تاني!».

قام ليضربني، فمنعه أخواه، وردّ أصغرهم: «عيب يا ناهد، إنتي

مبقاش ليكي كبير ولا إيه».

قاومت دموعي وقلت: «هو عشان يبقى ليَّا كبير اتضرب ويجي لي ارتجاج في المخ واتبهدل قدام بنتي والأغراب، واتشتم ويتهان عرضي من أقرب الناس ليَّا، حسبي الله ونعم الوكيل فيكم».

قال عادل بإصرار: «مش بس هقرَّب من بيتك، هولَع فيه بيكي إنتي وبنتك! آهو ده اللّي ناقص الناس على آخر الزمن هتعيّرنا بأختنا الـ... اللّي مش عارفين نلمّها».

نظرت في وجوههم، أبحث عمَّن يردّ قذف عرضي، كانوا راضخين لهياجه تمامًا، نظرت إلى عمرو أخي الصغير الذي طالما دللته، وحملته

وساندته، قلت له: «إنتا راضي إنَّه يتقال عنِّي كدة يا عمرو؟!».

قال عمرو بهدوء: «عيب يا عادل ميصحش دي برضه ناهد أكبر منك».

ردّ بهياج مصطنع: «لا ياخويا مش عيب، العيب إنها تفتكر إنها عشان معاها قرشين هتبقى مطلوقة محدش يلمّها»!

ضحكت يأسًا، وقلت بإصرار: «مفيش فايدة من الكلام معاك، بس الشويتين بتوع الفتوات دول مش هينفعوا، وأنا بقولهالكم آهو، اللِّي هيقرَّب منِّي، أو من بنتي هبلّغ عنه البوليس».

تركني وتوجّه لأمي التي كانت قابعة في صمت تراقب بخوف ما

يحدث، وبدأ يخبط نفسه، ويضرب رأسه ووجهه أمامها، ويحطم في البيت، وهو يصرخ: «بنتك الـ... يا أمّا هتبلغ عننا البوليس» ظل يردد بهياج حتى أغمى على أمي، نقلناها إلى المستشفى بسرعة، لم تمض على عملية دعامة القلب التي أجرتها سوى شهر، اضطرم قلبي، بين الشعور بالذنب، والأسى على حالي، وسيطرت عليّ فكرة واحدة: «أنا نحس»، دخلت في نوبة ضحك مرعبة، أضحك وأبكي وأردد: «أنا نحس».

نسج عقلي خيوط النحس كلها، لا تكتمل أموري أبدًا، دومًا يتحول الحلم إلى كابوس، طبطب عليّ أبي

قائلًا: «متقوليش كده يا بنتي حرام عليكي، استغفري ربك».

هدأت حال أمي، وطمأننا الطبيب عليها، ووبّخنا أن أوصلناها إلى هذه الدرجة من الضغط.

دخلت إليها، بدت ضعيفة هزيلة بائسة، أمسكت بيدي، وقالت بوهن شديد: «متفضحوش بعض يا ناهد، لو ليًا خاطر عندك، خليني معاكي، مش هضايقك خالص، هخدمك إنتي وسلمى بعنيًا».

قبّلت يدها: «متقوليش كده يا حبيبتي، أنا اللّي أشيلك في عيوني، وبيتي هو بيتك».

وكتمت ما في نفسي، ورضخت.

وانتقلت امي للعيش معي، واضطربت أمور أبي، كان بحاجة إليها، فهو أكثر منها مرضًا، ولا يستطيع كثرة التنقل، عرضت عليه أن يأتي هو الآخر، فجاء ولكن لم يستطع المبيت، وقال: «هفضل هنا أعمل إيه بس يا بنتي، ما إنتي عارفة الشوية اللّي بقعدهم عالقهوة كل يوم، همّا اللّي بيخلّوني أحسّ إني عايش».

ابتسمت له قائلة: «متخافش يا حاج هلاعبك أنا طاولة، وهغلبك متخافش».

ضحك وقال: «أنا عارف إنك بمِيت راجل، وإن الواد الأهبل ده غيران منك عشان عملتي اللّي هوّا

معرفش يعمله، عايز يفضل ينهب فيك».

جمعت كلمات أبي كسر قلبي، أوقفت نزيف روحي، ابتسمت وقبَّلت يده: «ربنا يخليك ليّا يا حبيبي».

قالت أمي: «في الآخر إنتو أخوات، ولو وقفتوا لبعض أو بلغتي عنه يا ناهد مش هسامحك»!

قلت لها بأسى: «لكن مسامحاه هو يا أمي بعد ما بهدلني، وداس على سمعتي وضربني ضرب موت ومد إيده على بنتي؟!».

بكت قائلة: «لا مش مسامحاه، وحسبي الله ونعم الوكيل فيه، بس هو غبي وقلبه صخرة، وأنت اللِّي

هتحسي وتفهمي، أعمل إيه بس يا ربي».

احتضنتها، وهدّأتها قائلة: «متتقلقيش يا حبيبتي وهدّي نفسك».

حاولت إلهاء نفسي في العمل، لن يتوقف عادل عن تهديدي حتى يسيطر علي حياتي، ينتقل للبيت، وبعدها يدير المحل، وينفق عليّ من عرقي، ويتحكم في سلمى، وينطط عياله عليها، أدرك نفسيته الخسيسة، أنا بالنسبة له الفرصة الوحيدة لعيش حياة بلا تعب، وللصرف على مزاجه، وراحته، وبيته، وخيبته.

بقاء أمي معي ليس تعبًا عليها، وعلى أبي فحسب؛ بل وسيلة لمجيء

عادل، سيأتي للاطمئنان عليها، وليتذوق طعامها الذي أوحشه، وسيبدأ في إلانة الحديث معي ومحاولة اكتسابي، وسيتأخر هو وأسرته في السهر معنا، ويضطرون للمبيت، ويتكرر الأمر، ويحتلون البيت.

واحدة من زبوناتي العزيزات لاحظت شرودي، وآثار الضرب على وجهي، سألتني فحكيت لها، كانت تحبني وتعرفني منذ سنين، فاقترحت عليّ ما اعتبرته الحلَّ الوحيد:

«إتجوزي».

«إيه؟!»

«الجواز هو الحلّ، إنتي لسّه صغيرة، وفي عِز شبابك».

«أنا مش بفكَّر في الجواز، جرَّبت حظي مرة وخلاص، مش حِمل تجربة جديدة».

«إتجوزتي وإنتي عيلة صغيرة، دلوقت هتعرفي تختاري، هو إنتي يعني طول السنين دي محدش اتقدملك».

«كانوا يتقدموا ويلمَحوا بس أنا كنت رافضة الفكرة، مكنتش عاوزة حاجة تعطلني عن شغلي وبنتي».

لم أستطع النوم ليلتها من التفكير، الزواج قد يكون مخرجًا من هذه الأزمة، لن يستطيع أحد تهديدي، ولن يكون بقائي في البيت مثار استغراب من أحد، «ظل راجل» يحميني من بلطجة أخي؛ ولكن ماذا عن سلمى،

كيف ستتقبل الأمر؟ وما تأثيره عليها، وماذا لو أصبح هذا الرجل نفسه تهديدًا واجب الطاعة.

بعدها بأيام ذهبنا لعيد ميلاد ابنة أختي، وهناك قابلت «حسن» ابن عم زوج أختي، كان رجلًا متوسط العمر، متوسط الوسامة، متوسط التعليم، وميسور الحال، أبدى اهتمامه بي بشكل ملحوظ، وتجاذب معي أطراف الحديث، وفي اليوم التالي زارني في المحل، وطلب الخروج معي للكلام في أمر مهمّ، وافقت، فاتحني مباشرة برغبته في الزواج مني، وأنه سمع عني خيرًا من زوج أختي، ورآني أكثر من مرة في مناسبات.

قلت له: «ولكنك متزوج».

أجاب: «لا عيب ولا حرام».

قلت: «مراتك ست كويسة وربنا رزقك منها 5 ولاد».

أجاب: «وهو أنا قلت لك هطلقها، أنا أقدر افتح بيتين، وأعدل بين اتنين».

سألته: «هتقولها إنك هتتجوز عليها».

أجاب: «مسيرها هتعرف، بس بلاش دلوقتي».

سكتُّ، واجتاحتني الحيرة، منذ طلاقي لم أفكر جدِيًا في تكرار التجربة، وخاصة بهؤلاء المتزوجين، وكانوا أغلب من وقعوا في طريقي، ولكنني هذه المرة فكرت، هو ميسور

الحال لن يتزوجني طمعًا في مال ولا بيت، وانشغاله ببيته، وتجارته ستعطيني الفرصة للقرب من سلمى، والاستمتاع بالحياة معها.

أجهدني التفكير، واحتجت للبوح، أمي أبدت موافقتها، أختي اعترضت قائلة: «شكلك هتخربي عليّا، ماليش دعوة باللّي هيحصل، مراته قوية».

صديقاتي أيّدن زواجي، ونفسي زيّنت لي الأمر، شعرت فجأة أنني بحاجة لرجل، رجل يحميني من أيّ رجلٍ آخر، ومَنْ يدري ربّما وجدت السعادة التي لم أعرفها، وربّما وجدت سلمى عوضًا عن الأب الذي لم يرثها، وربّما أدركت بقية شبابي، ربّما، من يدري؟!

رفضت سلمى، وحاولت إقناعها بأنَّ هذا هو الحلّ الوحيد لنرتاح من تهديد عادل، لم تقتنع، وغضبت، وهدَّدت بتركي.

«تسيبيني وتروحي فين يا سلمى؟».

«هروح لبابا»!

«لمين؟!».

«زيّ ما سمعتي».

أبوها الذي لم تره سوى مرات معدودة في مناسبات متفرقة طوال حياتها، الذي لم ينفق عليها يومًا؟ اعتبرته تهديدًا أجوفَ، وأقنعت نفسي بأنها مع الوقت ستكتشف مزايا الوضع الجديد.

تزوجت، وعادت أمي لبيتها، ونفَذت سلمى تهديدها، ذهبت إلى أبيها، وفي اليوم التالي عادت إليَّ كسيرةً حزينةً، تمزّق قلبي من أجلها، سألتها: «هل ضايقتك زوجته».

ابتسمت بسخرية وقالت: «بالعكس، هي الوحيدة اللّي عبرتني، هو قعد معايا ساعة ومشي، وبالليل قالّي لازم أرجع لك عشان إنتي متقدريش تستغني عني، ولما قلت له أنا محتاجة أبقى معاك عشان ماما اتجوزت، قالّي مينفعش عشان هو ميقدرش يعمل فيكي كده بعد كل السنين دي».

قلت بسخرية: «أصيل والله، فيه الخير!».

احتضنتها، وقلت: «إنتي أغلى حاجة عندي في العالم، ولو اتضايقت من جوازي هطلق».

بعد أسبوع ظهر بُخل «حسن»، لم يكن يطيق أن يعطيني مالًا، ولا أن يحضر شيئًا للبيت، وقال لي صراحة: «لست ملزمًا بنفقات ابنتك».

وبعد أسبوع آخر أظهر ضيقه من «سلمى»، وطلب مني ألّا تكون موجودة عندما يأتي حتى يأخذ راحته، فسألته متعجبة: «عاوزني أودّي بنتي فين؟!»

أجاب: «عند مامتك أو حد من صحابك».

ضحكت، فسألني عن السبب، ولم أستطع إخباره، لا يعلم أنني لم

أتزوجه إلّا لتستقر سلمى، وضحكت على «نحسي» الأصلي.

وبعد الأسبوع الثالث علمت زوجته بأمر زواجه، فجعلت عاليها سافلها، وأعلنت عليه الحرب، وتحوَّل إلى قطٍّ مبلولٍ مرتجف، اتصل بي خفية، وقال لي: «مراتي عرفت، ومش هقدر أجيلك الفترة دي».

وبعد شهر طرقت زوجته بابي، كانت قد ارتدت نحو 20 كيلو من الذهب، وتحمّمت بزجاجتي عطر، وارتدت بنطالًا ضيقا، وخلعت طرحتها فور دخولها البيت، لتريَني خصلات شعرها الملونة، قلت لها: «شعرك حلو، بس الهايلايت ده مش معمول كويس، لونه مش لايق عليكي».

قالت: «مش جاية أسمع رأي كوافيرة درجة تالتة في شعري».

«أمال جاية ليه؟».

«جاية أقولك إنه هيطلقك، وإنك هتبقي أسرع خطافة رجالة تطّلق في العالم».

«أنا مخطفتوش والله، هو كان هيتجوز كدة كدة وإنتي عارفة».

«مش مبرّر».

«معاكي حق، مش مبرر، ورسالتك وصلت، في حاجة تاني».

«لأ، كنت عاوزة أشوفك بس، وأتأكد إنه أهبل، أو نفسه حلوة إنه إتجوزك».

«كتّر خيرك، إشبعي بيه»!

اتصلت به، فأجاب بعصبية: «بتكلميني ليه؟ مش قلت لك هبقى أكلمك أنا لما الظروف تسمح».

قلت: «مراتك لسَّه ماشية من عندي».

قال: «يا نهار أسود»!

قلت له: «للدرجة دي خايف، مش كنت واثق من قدرتك على العدل، وإنك مش بتعمل عيب ولا حرام، دلوقتي بقيت مرعوب؟!».

قال بغضب: «إنتي قليلة الأدب، وأنا مينفعش مراتي تقلّ أدبها عليًا».

«وبعدين».

«ولا قبلين، إنتي طالق».

في هذه الليلة لم أبكِ، ولم أحزن، كان قلبي متجمِّدًا، ورأيت في نومي أن شعري تضاعف طوله، وازداد لمعانه، وأنا أنظر إليه في المرآة بسعادة ودهشة.

بعدها بأسبوع، زاد الصداع والدوخة، وشعرت بغثيان صباحي، ابتسمت للفكرة، وأحضرت اختبار حمل، أمسكته بسعادة، كان احتمالًا ضئيلًا جِدًّا؛ ولكني تبعته، وظهر لي الخطَّان، غمرتني الدهشة، وابتسمت لنفسي في المرآة، لم أدرِ بالتحديد ما هو سبب فرحتي، هل أن الحياة ستدب فيَّ من جديد، أم أن سلمى لن تصبح وحيدة، أم هو الاشتياق لضمَّة طفل، لا أعرف، كنت سعيدة؛ ولكنني

متأكدة أنه ليس من بين أسباب سعادتي احتمال عودتي لـ«حسن».

أخبرت سلمى فاكفهرَّ وجهها، وتساءلت بعجب: «إنتا فرحانة أوي كده ليه دي مصيبة».

«مصيبة ليه، هو أنا حامل من الحرام؟!».

«حاجة زيّ كدة»!

«احترمي نفسك يا سلمى، ومتنسيش إني أمك»!

«هو إنتي مش فارق معاكي إنك تجيبي إنسان تاني يعاني في الدنيا؟!»، ابن ولّا بنت ميعرفش أبوه، ويكبر وهو مكسور، وحاسس إنه

ملوش قيمة، وكلّ من هب ودبّ يتحكم فيه!».

«طب وأنا يا سلمى، عمرك ما حسّيتي بحبي؟!».

«حبك مش كفاية يا ماما، حبك ضعيف، مبيعرفش يحمي، حاولي ترجعي لحسن يا ماما، ارحمي اللّي في بطنك وارجعلي له».

«هوَّا كان هيبقى أحسن لك، لو فضلتي مع أبوكي»!

«معرفش، بس أكيد مش مبسوطة إني عشت حياة محدش بيحترمنا فيها، إنتي شفتي أخوكي عمل فيكي إيه قدامي وقدام الناس، ومعرفتيش تعملي له حاجة غير إنك جريتي إتجوزتي، ودلوقتي لمّا هتبقي مطلقة

تاني تفتكري هيسيبك، ولا هتروحي تتجوزي تالت؟!».

أغلقت على نفسي ودارت الأرض من حولي، كلمات سلمى كانت موجعة جِدًا، وحقيقية جِدًا، ما قيمة حب ضعيف، وما ذنب طفل يأتي إلى العالم بلا أب، ولأم ضعيفة.

انتهت العِدَّة، ولم يفكر حسن في السؤال، وأرسل لي ورقة الطلاق على بيت أهلي، طلاق غيابي لامرأة بلا حقوق!

جاء عادل حاملًا الورقة، يخبط، ويصرخ من جديد: «اتطلقتي تاني، وفاكراني هسيبك، لمِّي هدومك وهدوم بنتك من سكات وانزلي بدل ما أقتلك المرة دي!».

تركته يزيد في صراخه، حتى يخرج أكبر عدد من الجيران، ويسمعوا ويروا، واستفززته من وراء الباب: «أنا حامل كمان يا عادل»!

«حامل منين ياختي، إنتي لحقتي؟!».

«هكون حامل منين بس يا عادل عيب كدة».

ميزة عادل أنه غبي، أطلق كل أنواع السباب والتهديدات، كانت جارتي باتفاق مسبق تصوَّره، وبدأ يطرق على الباب بكلٍّ عنف، وتزامن وصول الشرطة التي اتصلت بها مع كسره للباب.

تورَّط في 3 قضايا، سبّ وقذف، والتهجم على مسكن الغير، والتهديد

بالقتل، وبشهادة الشهود، وتصوير الفيديو، والاعتداء السابق عليَّ بالضرب كان وضعه خطيرًا.

لم أتنازل عن القضايا إلَّا بعد أن كتب تعهُّدًا بعدم التعرُّض لي، كان جبانًا، توسَّل لي كي أسامحه، لم يحتجِ الخلاص منه إلَّا لمجرد إظهار قوتي.

وجاءت «مريم»، تضاعفت أمومتي، وتجدَّدت الحياة في البيت، وأشرفت على المحل بدون إجهاد، فقد كانت مريم رضيعة، وسلمى في الثانوية العامة، كانا بحاجة إليَّ، وكنت سعيدة بجوارهما.

لم يحتجِ النحس إلى شفرة سحرية كي يزول، لم يحتج إلَّا لأؤمن

أنني لست ناقصة ولا موصومة، وأنني لا أحتاج إلى رجل كي أسعدَ وأستتر، ولا لمحرم كي أعيش، وأنني كنت أقوى، وأذكى، وأنظف من الرجال الذين صادفتهم في حياتي، وأن حبي يمكن أن يكون قويًّا يحمي ويصون، وأنه لا أحدَ يتحكم في أحد إلّا بموافقته.

سترونج «مش إندبندنت»

لم يكن ذنبي أنّي أشبه عمّاتي وجدتي لأبي، ولم يكن ذنبي ما لاقته أمي منهم، ولكنها حاسبتني وكأنها ذنوبي، أفنيت عمري لأقنعها بالعكس، وأحاول أن أتشبّه بها، وأكسب رضاها، فقاطعت أهل أبي، وساندتها دومًا، وتقمّصت شخصيتها، وتلمّست سعادتها؛ حتى في أوْجِ سنوات مراهقتي؛ ولكنها لم تقبلني يومًا على أني ابنتها، كنت أنا رغم ما أكِنُّه لها «الأم الواقع»، وحظيت أختي الصغرى بباقة الأمومة كاملة، حنانًا ومرحًا وصداقة واهتمامًا وقلقًا.

كان يمكنني أن أسامحها، وأعتبر أن أمومتها الشاحبة معي هي منتهى قدراتها العاطفية؛ ولكنني كنت أرى الحب الذي أهلكت نفسي لأجل قطرة منه، تنهل منه أختي بلا حدود، فقط لأنها تشبه أمي شكلًا!

استغرقت 25 عامًا حتى أدرك أنني تعرَّضت لعنصرية فجَّة من أقرب الناس لي، ومن كان مفترضًا أن تمنحني أكبر قدر من التقبُّل يمكن أن أصادفه في حياتي «أمي».

النقطة المضيئة في روحي، والتي تنتشلني من أعماق اليأس والدونِيَّة، هي أنني لم أكره أختي يومًا، ولم أغَرْ منها، وكنت وما زلت سندًا لها، نعم تمنَّيت كثيرًا حدَّ الاحتراق أن أحظى

بيوم؛ بل بساعة تشعر فيها ميّ تِجاهي كما تشعر بها، وكنت أتخيل في متاعبي أن أمي تقلق عليّ مثلها؛ ولكنها تخفي ذلك حتى تصبح شخصيتي قوية؛ ولكنني لم أكره أختي، ولم أتخلَّ عنها، ولم أتمنَّ لها الشرّ أبدًا، وهذا بحدّ ذاته إنجاز، يومض بداخلي شعلة أنني نظيفة، وأنني أستحقُّ الحب.

سافر أخي، وتزوجت أختي، وظلت علاقة أبي وأمي عن بُعْد، يسافر ويزورها كل بضعة أعوام، ويكمل بقية إجازته مع أهله، لا يعرفنا ولا يقبل تقربنا، يلقي ببعض المال ويختفي.

تفوقت أنا في دراستي، ووُفِّقت في العمل مبكرًا، وبقيت أبحث عن نظرة فخر في عينيها فلم أجد، صالحت عمَّاتي خوفًا من القطيعة؛ ولأنني لم أشأ إكمال معركتها فتقبّلوني بترحابٍ نكاية فيها، ووجدت هي سببًا يمكن أن تعلنه لتتجاهلني، وتغرقني بكلماتِ الرفض، بدا لي أنها سعيدة، وهي تفرغ غضبها فِيّ، وتعلن دون مواربة أنني ابنة جدّتي، وشبيهة «الظالمين»، وجاحدة مثلهم، وكأنّ استجلابي رضاها، وسعيي للتشبُّه بها كان يضايقها، ويمنعها من العصف بهم في صورتي، كانت أمي مريضة حقًّا بهم، وبتشوُّه مفهومها عن الحب، وبالكثير من

جنون العظمة الذي منعها أن تحبَّ ابنتها الأقلّ شبهًا بها.

فسخت خطبتي 3 مرات، مع عدد مماثل لقصص حبٍّ خائبة، كان السبب واحدًا، والعيب فِيَ، أنا قابلة للاستغلال، باحثة عن التقبُّل، غير واثقة في نفسي، ولا استحقاقي للحب، أعطي عطاءَ مَنْ يخشى الرفض، والهروب منه، كنت بدونِيّتي أستخرج «الفرعون» الخفي فيمن صادفني من الرجال، فانضمت عقدتي منهم، إلى عقدتي من أمي، ومن نفسي، وتمسّكت بعملي وتديُّني.

بقيت أنا وأمي تحت سقف واحد، أجتهد في بِرِّها، وتجتهد هي في التنغيص علي.

أُنفق على البيت كاملًا، وأُحضر لها ما تشتهي دون أن تحتاج للطلب، ولا يمرُّ يوم دون أن تشعرني بخيبة الأمل على حظي التعس، وفشلي العاطفي، تحقق معي أحيانًا وتسألني عن غيابي في العمل، وهي تعلم يقينًا مدى استقامتي، وهي نفسها التي تعيرني بأنني جامدة كالرجل، ولا أتمتع بنفس «خفة» روح أختي التي تزوجت قبل أن تدخل الجامعة.

لا أهمية عندها لأشيائي، تدعُ أطفال أختي يدخلون غرفتي، ويبعثرونها كما يحلو لهم، لا تنقطع زيارات أهلها والصديقات، فلا أكاد أنام، ولا يحقُّ لي استضافة صديقاتي بحُرِّيَة.

نعم أعلاني من مشاعر دونية قديمة؛ ولكنني لست بلا كرامة، أنا امرأة قوية، وإدارية ناجحة، أحظى باحترام الزملاء، وثقة الناس؛ ولكنني على موعدٍ كلّ يوم مع الرفض، والمضايقة، والتّنمُّر، والإحباط بمجرد عودتي.

سأعيش لوحدي، هكذا قررت، ونفَّذت فجأة، ثارت أمي فتجاهلتها، استدعت أبي وأخي لتلافي العار الذي سألطخ سمعتهم به، فلم أناقشهما، جملة واحدة قلتها ببرود وقمت: «لا تقلقا، سأنفق على البيت، وكأنني مقيمةٌ فيه».

قاطعتني بعض صديقات المسجد، ورفضت عمّاتي زيارتي حتى لا

يقدمن لبناتهن هذا النموذج السيِّئ.

كان صوت الوحدة أكثر سلامًا لروحي، كنت أزورها كلّ يومين، أملأ الثلاجة، وأتمّم على أغراض البيت، وأسلم عليها، وأعود لعالمي، متعة الحرية بددت مشاعر الوحشة.

كنت كآلاف البنات أتمنى الزواج هروبًا من حياة كئيبة محبطة، حتى يكون لي بيتي واستقلاليتي، ومع اقترابي من الخامسة والثلاثين، كانت أمي تحضر لي عرسانًا «فرز عاشر»، فأنا من وجهة نظرها المعيوبة أصلًا واكتسابًا!

وفكرت أحيانًا أن أقبل يأسًا وذلًّا، وباعتبار الزواج هو المخرج الوحيد المتاح؛ فليس لعزباء محاطة بكلّ تهمٍ

العيبِ والتربُّص أن تعيش وحدها، وإذا كان الشباب الذين يعيشون وحدهم يُنظر إليهم بعين الرِّيبَة، فكيف بامرأةٍ تركت أهلها لتستقلّ، ليس لدى المجتمع سوى تفسيرٍ أوحدَ معروف لها: «فلتانة وعاوزة تمشي على حَلّ شعرها».

تجاهلني الجيران الجدد، وسعدت بهذا، فلا أنا حمل ذكور ناقصين يرونني فرصة سهلة لنزواتهم الغبية، ولا طاقة لي بزوجات يجعلن مني حبكة درامية لحياتهنّ المملة.

كثيرًا ما منعني من هذه الخطوة خوف ساعات الليل، أن أستوحش وحدي، أن أتعرَّض لمضايقات، أن تئِنَّ نفسي من الوحدة؛ ولكن العكس هو

الذي حدث، مع الوقت لم أعد بحاجة لأدوية القلق والاكتئاب، في الليل كنت أنعم بالنوم، أو أصلي، أو أشاهد شيئًا ممتعًا، أو أرقص، وأقفز دون أن يعلوَ صوتَ الموسيقى حتى لا يشكّ الجيران المتربصون في سلوكياتي الليلية، يكفي أنني أصبحت واعية لصوتي أفكاري المزعج، والذي لم يكن سوى آراء أمي في حياتي، فأصبحت أضحك عليه وأستهزئ به.

مرّ عامان قبل أن تستطيعَ أمي وأختي زيارتي في بيتي، ولم تنسَ أمي وهي ذاهبة أن تلقي بإحدى عباراتها في وجهي: «هو مين ده اللّي هيرضى يتجوز بنت طفشانة وعايشة لوحدها؟!».

لم أشعر بالإهانة، ولم أجد رغبة في الرَّدّ، ابتسمت وأنا أوصّلها للباب، وربَتَتْ على كتفها قائلة: «ادعي لي إنتي بس يا أمي».

أنا كنت رغم معاناتي النفسية «سترونج وومن»؛ لكن عمري ما كنت «إندبندنت»، ولو فيه ألف واحدة بتستقلّ عشان تبقى «على حَلّ شعرها»، ففي زيهم، وأكتر بيعملوا كلّ شيء مسيء لنفسهم، وضفايرهم مربوطة بسلاسل، وألف عين بتراقبهم.

كلاس «بيلي دانس»

أمي بعد ما جابت 3 صبيان كانت بتدعي ربنا ليل ونهار يرزقها بينوتة، البيت كان على حد وصفها: «ناشف زي ساحات الحرب»، وكانت مش حسَة إن امبراطورية «ياء» (ياسر- يوسف- ياسين) هتكمل إلّا بياسمين، كانت بتحلم إنها بتسرح شعري، وبتغني لي وتخرج معايا تدلّعني في هدوء وانسجام، وتشتري لي عرايس نلعب بيها سوا، وأنا فاكرة برضه إني كنت بحب العرايس جِدًا، وهي كانت جايبالي كتير؛ لكن للأسف الثقب الأسود كان أقوى بكتير منّي ومنها،

لأن يوسف وياسين أقنعوني إن اللعب بالعرايس له معنى آخر غير إني أسرحلها وأنيّمها وأحضنها، وفضلوا يتريقوا على طريقة لعبي، وإن ده «لعب العيال الصغيرة»؛ لكن اللعب الحقيقي والمتعة الحقيقية إننا نعلقهم على الحيطة، ونحدف عليهم الأسهم، ونشوف مين فينا هينشن أحسن على رأسهم وعنيهم، أنا رفضت طبعًا في البداية وعيطت، لكن فضلوا ورايا لحد ما اقتنعت فعلًا إن اللعب ده ممتع أكتر.

كنت شاطرة في الجمباز، وبحبه جدًا؛ لكن ياسين أقرب واحد من أخواتي ليّا فضل يتّريق عليّا، هو كان بيتدرب كاراتيه، فضل يقارن بين

الجمباز والكاراتيه وعرف يلعب بدماغي، كان أكبر مني بسنتين؛ لكن كان في نظري كولومبوس العارف ببواطن الأمور، فضل يسألني سؤال محدّد: لو حد جه يضربك في الشارع إيه اللّي هينفعك الجمباز، ولّا الكاراتيه؟ السؤال كان صعب بصراحة، أكيد اللّي هينفعني أكتر هو الكاراتيه، بس ليه حد يضربني في الشارع أصلًا، يعني ليه السؤال ده هوًّا اللّي يحدد اختياراتي؛ لكن رضخت، ورضخت ماما لإلحاحي إني ألعب كاراتيه مع ياسين بدل الجمباز، الحقيقة إن ياسين مستفدش بس إن إحنا كنا بنتمرن في النادي سوا؛ لأنه كان بيكمل تمرين لما نرجع البيت،

وعلشان يعمل معايا بيت بالمخدات، كنت لازم ألعب معاه ضرب الأول، مكانش بيعرف يضرب يوسف براحته، فكان بيتمرن فيّا ويشعر بزهو قوته!

ياسر كان أكبر مني بكتير، كان أكتر واحد بيدلعني، كان بياخدني معاه أتفرج عليه هو وصحابه وهمَّا بيلعبوا بلاي ستيشن ساعات، ولما بقى عندي 7 سنين علمني الشطرنج، وبقوة الجاذبية لقيت نفسي بتفرج على الكورة ويلعبها وبشجعها بجنون زيهم.

ماما لم تستسلم بسهولة، وقاومت على قد ما تقدر طغيان التستوستيرون، كانت دايمًا بتلبسني

الوان رقيقة وجميلة، وتجيبلي توك شعر مبهجة وكتير، وإكسسوارات ومانيكير، وتحافظ على طقوس خاصة بيني وبينها، نخرج سوا، ونروح للكوافير، ونتفرج على كارتونات لطيفة مفيهاش ضرب ولا وحوش جاية تدمر الأرض.

ومع اقترابي من المراهقة كانوا بيغيروا عليّا جِدًّا، فكان لبسي جوّه البيت وبرّة محدود ومراقب، وكانوا بيستخدموا إستراتيجية وقائية وتلقائية إنهم يتريقوا عليّا لما أحط ماكياج، أو أعمل شعري وألبس حلو في مناسبة، رغم إني كنت ببقى فعلًا جميلة؛ لكن اخترعوا جملة عبقرية:

«هوَّا حلو بس مش لايق عليكي، دي حاجات البنات التافهة».

في الحقيقة أنا ممتنة لوجود إخواتي، بحبهم أكتر من روحي، وطلعت واثقة في نفسي كإنسانة، متعددة الاهتمامات، واتعلمت حاجات كتير، واكتسبت قوة في أمور كتير، لكن كنت بيضّ للحياة بعنيهم، وآراءهم كانت فارضة نفسها على عقلي وقلبي، البنوتة اللِّي جوايا مخدتش راحتها في التمدُّد، وفي الآخر اتجوزت «نادر» صاحبهم، جارنا وصديق الطفولة اللّي كان بحكم العِشرة مسموح له بالاقتراب المحرّم على غيره.

قبل الجواز بأسبوع

ماما، أنا خايفة!

من ايه يا حبيبتي؟!

من الجواز.

ليه؟! ده نادر صاحبك، وإنتي عارفاه من زمان.

عارفاه كصاحبي بس مش قادرة أتخيّله زوجي.

ماما بقلق: قصدك إيه يا ياسمين، إنتي مش بتحبيه؟

بحبّه جِدًّا، بس مش قادرة أتخيّله زوجي، أو بمعنى أصحّ أنا مش قادرة أتخيّل نفسي زوجة!

ماما ضحكت: مش مهمّ تتخيّلي يا حبيبتي، سيبي نفسك لمشاعرك،

وفطرتك والأمور هتيجي بسلاسة.

قلت وكأني أكتشف نفسي من جديد: تعرفي يا ماما، أنا كتير بنسى إني بنت!

ماما بضحك: طبعًا من اللَّي شفتيه في حياتك، كان نفسي أجيب لك أخت واللهِ تاخد بحسّك، بس خفت يطلع ولد كمان، ويعملوكي ساندويتش!

ضحكت، وقلت لها: أقولك على حاجة غريبة يا ماما، أول مرة أقولها لحد، أنا لما جت لي «البيريود» أول مرة اتفاجئت، كنت فرحانة أوي واتأكدت إني بنت، أنا كنت بشُكّ في نفسي، كنت بحسّ إني مش زيّ بقية البنات.

بصّي يا ياسمين، كلّ بنت عندها بصمة لأنوثتها، الأنوثة مش صور نمطية في اللبس، والصوت، والاهتمامات زيّ ما هو منتشر، الأنوثة هي الحياة برقّتها وقوّتها وحنانها وصدقها، الروح اللّي بتخلّي العالم مكان يستحق الحياة، وإنتي عمرك ما كنت في عداء مع البنوتة اللّي جواكي، ومش لازم عشان تبقي بنوتة تبقي في عداء مع إنسانيتك، حبّي نفسك زيّ ما هيّا، وسيبي مشاعرك تتشكل من جديد، إنتي دلوقتي مش مع إخواتك اللّي بيخافوا ويغيروا عليك، إنتي مع زوج عاوزك صديقة وحبيبة وعشيقة، متخافيش، ومتصادريش على

مشاعرك، سيبي نفسك للتغيير والمفاجأة.

حضنتها: ربنا يخليكي ليَا يا حبيبتي، ادعي لي.

ربنا يحلّي أيامك يا ست البنات.

بعد الجواز بشهر

الجرأة، والثقة، والصوت العالي، والصراخ أثناء مشاهدة الماتشات، بيتحول لخجل شديد، وبعض الخوف مع كل اقتراب عاطفي وحميمي، مش مكسوفة من نادر قد ما مكسوفة من نفسي، فيه صوت داخلي جوايا بيتريق عليًا لما أتزيَن، أو ألبس لانجيري، أو أسمع كلام حلو من جوزي، الصوت دهب يقول لي نفس

جملة إخواتي القديمة: «حلو بس مش لايق عليكي، مش إنتي».

وما زال بحثي عن بصمة أنوثتي مستمرًا، وما زالت صداقتي مع نادر أجمل ما في الحياة.

بعد 3 شهور

بتدوَّري على حاجة في موبايلي يا مدام؟

بتفرج على المهازل اللِّي عندك على الواتس يا باشا.

مهازل إيه؟ كفى الله الشر، أنا الواتس بتاعي محترم، وابن ناس.

ده إيه الجروب المريب ده، ومين هشام المنحلّ اللّي بيبعت فيديوهات

شنيعة.

هههه ده جروب أصحاب الجامعة، وريني كده هشام المنحلّ باعت إيه؟

إمشي يا بابا.

يعني إنتي شفتي الانحلال وأنا لأ، ورّيني عشان اعرف هو انحلال بجدّ، ولا أي كلام.

ده هبل، باعت فيديو لواحدة عندها مغص، وبتعمل حركات تشنجية هههه الفسق المسمى بالرقص.

أحلى هبل ده ولا إيه، ما تورّيني شوية هبل كده يا ياسمين.

بس أنا الحمد لله معنديش مغص.

بس أنا عندي انحلال يا ستي، فكيها عشان ربنا يكرمنا.

انتهى الحوار الضاحك؛ لكن كنت متضايقة، مش من جروب الجامعة، ولا من فيديوهات هشام، لكن الهزار جه على الجرح، والسؤال اللّي فرض نفسه عليّا: هوَّا ممكن نادر يكون منتظر مني إيه؟ والمفروض أعمل إيه وأبقى إزاي؟

وصفة البسكوت

بصّي يا عالية أنا دوَّرت كتير، ولقيت كورس هيبدأ الأسبوع الجاي بعنوان (كيف تكونين أنثى رقيقة؟)، قررت أشترك فيه.

أيوه عارفاها الكورسات دي، كيف تصبحين مسهوكة؟

مسهوكة إزاي؟

أيوه، يعني تتدربي على طبقة «السوبرانو»، وتتكلمي بصوت واطي، وتقعدي وإنتي قافلة رجليكي، وتقولي ميرسي بطريقة سحالف النينجا مع شوية فحيح، ومتقوليش آخر حرف من اسم جوزك عشان تبقي دلوعة.

إيه القرف ده؟

أيوه يا بنتي أُمّال إنتي فاكرة إيه؟ فاكرة إنهم هيخلُّوني أكتشف بصمة الأنوثة الخاصة بيًّا.

بصمة إيه يا ياسمين إنتي عيّانة؟

بتكلم جَدّ يا عالية والله، أنا محتاجة أتسهوك شوية.

وده من إيه؟

حسَّة إن نادر ناقصه شوية سهوكة؟

إنتي متخيَّلة إنك هتعرفي تبقي كده؟

أيوه عقّديني إنتي كمان، مش كفاية إخواتي عقّدوني طول عمري، ومتسهوكش ليه يعني؟ أنا وحشة ولّا إيه؟

هههههه، لأ طبعًا إنتي قمر، بس بصمة الأنوثة مالهاش علاقة بالسهوكة، ولا ليها علاقة بنادر.

إزاي بقى يا فيلسوفة عصرك؟

يعني لو بتتكلمي بجَدّ، وعاوزة تحسِّي بأنوثتك، فده مالوش علاقة بالتصنُّع، والمفروض ميكونش عشان جوزك، وإلّا هيبقى زي ماسك بتلبسيه وبعدين تزهقي وتقلعيه، زي عدّة الشغل يعني اللِّى بتستخدميها شوية وبعدين تركنيها، لكن إحساسك بأنوثتك لازم يطلع من جواكي، مش من برّه، ويكون ليكي، عشان تحسي باكتمالك وتتصالحي مع نفسك.

إيه الكلام الكبير ده؟

طيب سيبك من الكلام الكبير، وتعالي معايا بكرة الساعة 7 مشوار لطيف.

فين؟

مفاجأة.

في يوم وليلة

إيه المسخرة دي يا عالية؟

مسخرة إيه يا هبلة؟ ادخلي واقعدي.

مش مصدّقة هوّا إنتي لابسة إيه؟

لابسة خلخال يا عالية؟ يعني بتتريقي على الكورس المحترم، ورايحة تلبسي خلخال، وإيه ده كمان؟

ده حزام رقص.

أهلًا!

إنتي لابسة بدلة رقص يا عالية.

لا للأسف، دي جلابية نانسي بس.

جلابية نانسي؟!

آه، وبطلي judging، إتفرجي علينا عشان المرة الجاية هتبقي معانا.

أنا؟

أيوه، هوَّا أنا بقولك هترقصي في الشارع، إنتي في جيم محترم، وده مكان ladies only.

بس أنا مبعرفش.

مش مهمّ، يلّا.

في يوم وليلة، يوم وليلة، خدنا حلاوة الحب كله في يوم وليلة.

أنا وحبيبي، حبيبي حبيبي دوبنا عمر الحب، كله، في يوم وليلة.

عمري ما شفته، ولا قابلته، وياما ياما شغلني طيفه.

وفي يوم لقيته، لقيته هوّا، هوّا اللّي كنت بتمنّى اشوفه.

كالمسحورة خرجت من «كلاس البيلي دانس» وأنا حسّة إني كنت في بلاد العجايب، الموسيقى، واللبس والحالة الحلوة المرحة، كلّ واحدة لابسة بمزاجها، محدّش بيقيّم حد، ولا بيحكم عليه، كلُّه متناغم مع الجوَ اللطيف، وبيبتهج.

اشتريت جلابية نانسي بلون أحمر فاقع، ومعاها حزام رقص دهبي من اللّي بيرقص لوحده، وخلخال وحلق من اللّي عمري ما تخيّلت نفسي أمسكهم فضلًا عن أني ألبسهم، حرّرت شعري من أسر ديل الحصان، والكحكة اللّي مخنوق فيهم دايمًا،

وفتحت قلم الروج الذي لم يُستخدم، وقاومت خوفي وخجلي، وقررت إني هبصّ لنفسي في المراية، وهبصّ على «الإنستركتور»، ومش ههتمّ بنظرات الناس، نظرات الناس دي مجرد وهم العقل بيفرضه علينا.

قبل ما نبتدي، «الإنستركتور» اللطيفة الذكية قالت كلمتين حلوين:

برحّب بالناس اللّي معانا لأول مرة، إحنا هنا عشان ننبسط، وناخد طاقة إيجابية، الرقص الشرقي فيه ناس فاكرينه للإغراء، وهو ممكن يستخدم لده، لكن هو أكبر وأمتع، إنتي هنا مش عشان تتعلمي ترقصي لراجل، إنتي هنا عشان تحبّي نفسك وشكل جسمك، إحنا هنحرق سعرات

أكتر من اللي في بقية «كلاسيز الكارديو»، وكمان الجسم هيبقى أكثر مرونة، ده غير «السيروتونين» اللَي هيعلا، والثقة اللّي هتزيد، مش مهم بتعرفي أو لا، ولا تقلديني بالظبط. اتحركي وافرحي.

مع كل تراك كان الخجل بيقلّ، والسعادة بتزيد، مكنتش مصدقة، وأنا بشوف نفسي في المراية بلبسي وحركاتي، كان حلو وكان لايق عليّا.

أنا لقيت وصفة البسكوتة بتاعتي، وعرفت إني مش لازم أبقى امرأة حديدية عشان أكون ناجحة ومش تافهة، الإشكالية دي معادتش تلزمني، وبصمة أنوثتي مينفعش أقلد فيها غيري، ولا أكتشفها إلّا من جوايا.

اجتماع مجلس آباء

من الصعب تحديد ما هو أسوأ ما في الخيانة، فكلُّ ما فيها سيِّئ.

أسوأ ما في الخيانة خسارة الحب، وقتل الحلم، أنها تجعلك مضطرًا لمواجهة الحياة فجأة خاليًا من الأمل، أسوأ ما في الخيانة أنها تطالبك بأن تكره من تُحب، أسوأ ما في الخيانة أنها توقعك في حرب مع نفسك، مع جدارتك وكفايتك واستحقاقك، أسوأ ما في الخيانة أنها تُقحم الدخلاء في تفكيرك، وتجعل لأرخص البشر قيمة.

أسوأ ما في الخيانة أنها تأتيك وأنت غير مستعدّ، تأتيك في منتصف

الطريق، تأتيك وأنت مطمئن، تأتيك وقد سدَدتَ على نفسك منافذ الخروج، وبنيت حياتك، وزرعت قلبك في جحيم عابث.

أسوأ ما في الخيانة أنها تدفعك للاقتناع بما يخالف ضميرك، وتقبل ما يغيرك للأبد.

أسوأ ما في الخيانة أنها تأتي غالبًا في غلاف الاستغفال، فيتضاعف ألمها عندما تقترن باتهام النفس بالغباء، أو ما يُعرف في العامية الدارجة بـ«القرطسة».

لم يكن مرور الأيام يزيدني إلّا عشقًا له، أسعد الأصوات في أذني هو صوت مفاتيحه تعلن وصوله للبيت، يدق قلبي وكأنني في أيام الخطوبة،

عشر سنوات زواج زادتني تعلقًا به، هو مركز حياتي، ووتد قلبي، وعمود بيتي.

يزعمون أن الغيرة نقص ثقة في النفس أو في الغير؛ ولكن غيرتي كانت من فرط الحب، أراه جميلًا فأغبط نفسي، وأشعر أن العالم كله يحسدني عليه، ويحزنني أن ينظر لغيري، أو تعجبه امرأة سوايَ، هذا فقط ما كان يدفعني للغضب، والخلاف معه، وإلّا فإنني أحبَ كلّ شيء فيه، وأتقبّل عيوبه قبل مزاياه.

لم يكن بصباصًا ولا «نسوانجيًا»، ولكنني كنت أغار بشدة أيضًا، فلم يكن حازمًا بما يكفي لراحة قلبي، وتسكين غيرتي، وإذا كان عليّ أن

أتجنَّب مخالطة الرجال والحديث معهم، وأن أتعامل على قدر الحاجة وبمنتهى الجَدِّيَة، فعليه هو أيضًا أن يفعل ذلك؛ ولكنه لم يكن كذلك.

لا يسعى للنساء؛ ولكنه لا يمانع، لا يطلب صداقة زميلاته على فيس بوك؛ ولكنه يقبلها، لا يبدأ بالمزاح؛ ولكنه يُسَرّ به، ويتجاوب معه، كان هذا يشعرني بالخطر، فماذا أفعل إذا كان حبيبي على نياته؟ وكل البنات إخواته، وماذا لو تعثَّر في ذات دهاء تتسلل إلى قلبه بدون أن يشعر، وتدخل إلى حياته من أبوابه المواربة؟

وهذا ما حدث بالفعل: كنت قد دخلت شهري السابع من الحمل، وهنًا

على وهن كما وصفه الله، ويزداد الوهن عندما يكون هذا الحمل الثالث، معك طفلان آخران بحاجةٍ إلى رعاية واهتمام، يوقظانك إذا نمت مرتاحًا، ويحتلان كامل يومك وعقلك وقلبك، فإذا كان أحدهما يعاني من فرط الحركة، وتشتّت الانتباه، فإن العبء يتضاعف، والطاقة تستنفذ سريعًا، فكيف لو أضفت إلى هذه المعطيات أنني «فريلانسر»، يعتمد البيت على دخلي بشكل كبير، ولَدَيّ دومًا مواعيد تسليم وفي حاجة إلى الهدوء والتركيز؟!

ولكن الله دومًا أعانني، وكثيرًا ما قلت لزوجي: ما دام القلب مرتاحًا، والبال هادئًا فكلّ شيءٍ هيِّن.

كان عليَّ أن أزور المدرسة كلَّ أسبوعين تقريبًا، للاطمئنان على جنى ومروان، وخاصة الأخير الذي كان دائم الشكوى من زملائه، وهم كذلك.

في إحدى هذه الزيارات تعرفت على الإخصائية الاجتماعية الجديدة «ميس كريمة» التي أبدت اهتمامًا واضحًا بمروان، شكرتها عليه، ووصيتها بتقدير حالته، وتشجيعه ومساعدته في تكوين الصداقات، فوعدتني بذلك، وتبادلنا أرقام الهواتف؛ ولأنه كان موعد الانصراف، فقد عرضت عليها أن نوصلها وطفليها بالسيارة إلى أقرب نقطة تركب منها لبيتها، فقد أخبرتني أن بيتها بعيد، وتضطر لركوب أكثر من مواصلة.

ركبت معنا، ولاحظت أنها تعامل طفليها بخشونة واضحة، وتحرجهما أمام الآخرين، رغم أنها منذ دقائق كانت تحدثني عن التربية الإيجابية وأهمية الصبر على الطفل!

بعدها بأيام لاحظت رقمًا غير مسجّل يتصل بزوجي، وبعد ساعة اتصل الرقم نفسه من جديد، وضعته على هاتفي فوجدته رقم «ميس كريمة»، تعجبت واتصلت بها:

مساء الخير يا ميس كريمة إزيّ حضرتك، أنا رحاب والدة مروان.

أهلًا يا مدام، الحمد لله بخير.

خير حضرتك كنت بتتصلي على بابا الولاد؟

آه علشان بننظّم اجتماع مجلس الآباء.

إنتي المسؤولة عنه، ولا ميس شيرين؟

ميس شيرين طلبت مني أساعدها، وأتصل بالناس، يا ريت الأستاذ عمرو ميتأخرش.

طيب تمام متقلقيش هوّا هييجي في الميعاد زي الشهر اللّي فات.

إن شاء الله.

حذفت رقمها من على هاتفه، ولغيت الاتصال، ولم أخبره شيئًا، واعتبرته أمرًا عاديًا.

اصطحب جنى ومروان معه يوم اجتماع مجلس الآباء، حيث كان

لديهما نشاطٌ رياضيٌّ في نفس اليوم.

أثناء المذاكرة قالت لي جنى ذات الثمانية أعوام: أنا زهقت في العربية النهاردة وفضل مروان يزن على دماغي وقعدت أعيط.

ليه؟ هوَّا بابا كان فين؟

كان واقف مع ميس كريمة قدّام المدرسة كتير جِدًا، وقعدت أضربله كلاكس، وهوَّا يقولي اصبري.

معلش يا جنى، يمكن كانت بتكلمه في حاجة.

بتكلمه في حاجة ساعة، ومسكوا الموبايلات ساعة، أنا زهقت جِدًّا.

خلاص معلش يا حبيبتي، المرة الجاية هاجي معاكم.

وكمان وصّلناها لحَدّ بيتها في الآخر.

قمت على الفور أُفحص هاتفه، وجدت رقمًا في المكالمات الصادرة، باسم: إخصائية مدرسة، لم يكن الرقم الذي معي، سألته:

هيًا الإخصائية إدتك رقمها؟

آه.

ليه؟

عشان اجتماع مجلس الآباء.

ماله؟

بتنظمه وتكلم الناس.

ومتكلمنيش أنا ليه؟

عشان أنا اللّي في المجلس مش إنتي.

ومدّياك رقم غير اللّي ادّتهوني ليه؟

أكيد عشان عاوزة تخطفني منك.

بتتريق؟

طيب أعمل ايه؟

تبقى تقولها يا محترمة معاكي رقم مراتي لو محتاجة تتأكدي اتصلي بيها.

صح أنا آسف، المرة الجاية هبقى أقول كلموا وليّة أمري.

ووقفت تتكلم معاها ساعة قدّام المدرسة.

مين اللّي قالك كده؟

جنى اللّي كانت هتفطس في العربية!

علِّمي بنتك متنقلش الكلام والمواقف، ولا إنتي بتربِّيها تبقى جاسوس.

جاسوس!! طيب الجاسوس قال لي كمان إنك وصلتها لحَد بيتها.

وفيها إيه؟

إنتا شايفها عادية.

جِدًّا، زيّ ما إنتي أصرّيتي عليها المرة اللّي فاتت تركب معانا عشان صعبت عليكي.

ترضى أركب مع راجل غريب يوصلني؟

لأ، مرضاش.

إشمعنا؟

كلّ واحد حُرّ.

وكمان وصَّلتها لحَد البيت؟

ولادها معاها، وأنا ولادي معايا، وقاعدة ورا، ومش هتنيّل أروح المدرسة دي تاني، إبقي روحي إنتي الاجتماع، ولا إن شا الله مروحناه، هو مالوش لازمة أساسًا.

صليت العشاء وهدأت نفسي، ثم لمتها على التركيز على الأمر، ليتني لم أضخم الموضوع ولا نبهته له، وأقنعت نفسي بأن الأمر عادي جِدًا، وأن معاييري الخاصة في التعامل ليست مُلزمة للجميع، في النهاية هي تؤدي عملها، ولا مجال لتجدد العلاقة.

تناسيت الأمر، وعدت لدائرة حياتي المعتادة المُجهدة، ولكن الأمر لم يكن عاديًا أبدًا، ولا كان مجرد

وسوسة تدفعني إليها غيرتي، فبالإضافة إلى شروده الطويل، وعصبيته الزائدة، وابتعاده عني، كان حريصًا على غير العادة على ألَّا يترك هاتفه، كان يصطحبه معه إلى كل مكان، وإذا نسيه ودخل الحمام، أو ذهب ليفعل أيَّ شيء هُرِعَ فجأة ليحضره.

فتحت هاتفه بعد نومه، وجدت محادثة طويلة على «الواتس أب» معها، بدأته هي بالكلام والشكر على توصيلها، ردَّ عليها بالعفو مع ابتسامة، فأرسلت له شكرًا مجددًا مع باقة ورد، فردَّ عليها بورد مضاعف.

أرسلت إليه في اليوم التالي تطلب منه المساعدة في العثور على شقة

إيجار قريبة، وعللت ذلك بأنها لا تعرف أحدًا في المنطقة، وليس لديها من يُساعدها، فهي مطلقة ويتيمة.

بعض الرجال يقعون بسهولة من مدخل «الضعف والاحتياج»، وكان عمرو من هذا النوع الذي يبحث عن أن يكون الشهم الجدع الذي يساعد الجميع، ويا سلام لو كانت امرأة غلبانة ليس لها سواه، ويبدو أنني كامرأة أثقلها الحمل، وأرهقها أطفاله، وتعاني من حبه، لم تكن كافية للإحساس بسعادة «السوبر مان»، فزمّار الحيّ لا يطرب، وأيّة لذة وتحدٍّ في امرأة مضمونة مكبَّلة بالقيود الكثيرة مثلي، أكل عليها الدهر وشرب، لم يعد لحبي نشوة، ولا

لإعجابي ومدحي رونقًا، ولا لضعفي رحمة، ولا لحبّي اعتبار، وبالطبع استرسل مع العابرة الجديدة التي ترفع الدوبامين والأدرينالين والسيرتونين وكل هرمونات البهجة والتشويق.

في يوم الإجازة اعتذر عن عطلتنا الأسبوعية بزعم أنه مرتبط بمشوار مهمّ مع صديق له، وكنت على يقين من أنه سيذهب إليها، فإمّا أن أتبعه، وأواجهه، وينبني على ذلك نهاية علاقتي به، أو أن أتجاهل وأتناسى، فاخترت المواجهة، لم يكن لأعصابي احتمال سواها، وضعت طفلَيّ عند جارتي، وأخذت عنوانها من مدرسة

صديقة قديمة لي وتعللت بأنني أريد إرسال طرد لها.

وصلت إلى بيتها قبله، لم يخيب ظني، جاء ليصطحبها من البيت، بسيارتي، نعم هي سيارتي، بمقدمها وأقساطها من حرِّ مالي، وحتى وإن لم تكن من مالي، فهي سيارتي، والكرسي الذي أجلسها عليه بجواره مقعدي، تبعتهما كالأفلام في سيارة أجرة حتى استقرَّا في أحد الكافيهات، ظللت أراقب مختبئة، قلبي ينبض بجنون، وجنيني لا يتوقف عن الركل، التقطت لهما عددًا من الصور وهما يأكلان، ويتضاحكان، ثم دخلت وعلى وجهي ابتسامة مرعبة إلى الكافيه، سلمت وجلست،

كان في قمة الارتباك، لا يعرف ماذا يفعل، وهي تجلس في خوف.

قلت بهدوء:

«هات مفاتيح عربيتي عشان الولاد محتاجين يخرجوا النهاردة».

نظر إليّ صامتًا لا يعرف ماذا يقول، فكرّرت بحزم: «مفاتيح عربيتي».

أخرج المفاتيح، وأعطانيها دون أن ينطق، أخذتها وتوجهت للباب، قام مسرعًا، وقال لي: «استني أوصلك يا رحاب».

أجبته دون النظر إلى وجهه: «شكرًا».

قال باستجداء: «ممكن تستني بس أفهمك الموقف».

رددت بحزم: «اللي أنا مسألتكش عليه».

«ما هو لازم تفهمي».

«مش بالعافية».

عدت إلى البيت، تعجبت من نفسي، لا دموع ولا انفعال، جمعت ملابسه وأغراضه في حقيبة كبيرة أمام الباب، عاد هو الآخر بسرعة، اضطرّ لإنهاء يومه العظيم، دخل إلى البيت، فوجدني جالسة أمامه، والطفلين في الداخل.

«عاملة إيه يا رحاب؟».

«تمام، الحمد لله».

«ممكن نتكلم؟».

«لأ، مش ممكن، دي شنطتك ياريت تاخدها وتمشي، أي حاجة ناقصة هبقى ابعتهالك»!

«أمشي فين متتجننيش».

«مفيش أي جنون، لو هتتمسك بالبقاء في البيت يبقى آخر ذرة رجولة جواك راحت؛ لأنك ببساطة بتضطرني وأنا حامل أسيب بيتي ومعايا العيال ونروح نقعد عند حد، لا شرع ولا قانون ولا أخلاق يسمحولك بكده، لكن لو أصرِّيت هضطر لده».

«طيب وليه كل ده، نستعيذ بالله من الشيطان الرجيم، ونتكلم، حقي

عليكي تسمعيني».

«شوف يا عمرو، أنا لحد دلوقتي مقولتش لحد، ولا فرجت أهلي الصور وأصريت على الطلاق، وهفضل متمسكة بالستر والصبر والتفكير بشرط إنك تكون ذكي، لو استغبيت هتبقى بتحرق آخر فرصة محتملة إن البيت ده ميتخربش».

«صور إيه ونيلة إيه؟ هو إنتي قفشتيني في سرير واحدة؟».

«هتبتدي تستغبى أهو».

«ما تحترمي نفسك وتبطلي قلّة أدب».

تمام، يبقى إنتا متمسك بالشقة، هكلم أهلي ييجوا دلوقت ونتطلق

الليلة، لو الموضوع ده خرج من بيننا هتبقى النهاية بيني وبينك، لكن لو مشيت دلوقتي ممكن يكون فيه فرصة، وبفكرك إن ربنا قال: «لا تُخْرِجُوهُنَّ مِنْ بُيُوتِهِنَّ».

«هو حَد قال لك تخرجي».

«إصرارك إنك تفضل معناه كده بالنسبة لي».

«يعني إنتي عاوزة إيه دلوقتي؟».

«تمشي دلوقتي بهدوء، لو رافض يبقى تطلقني».

«لا حول ولا قوة إلا بالله».

«العلي العظيم».

«ماشي همشي وهاجي بكرة».

«مع السلامة».

حمل حقيبته وذهب، لم يتخيَّل يومًا أنني سأتركه يذهب، وعلى الأرجح طمأن نفسه بأنها زوبعة فنجان وستهدأ، وأن حبّي الجارف، وحسابات الأمومة الصعبة، والشوق للمصالحة والاستقرار سيجعلني أسامح وأنسى، وربّما أتفهم تبريراته وألوم نفسي، وأصالحه أنا كالعادة.

اتصل بي قرابة ثلاثين مرة، لم أرد، أرسل على الواتس لم أفتح، في الصباح طلبت من جارتي أن تشتريَ لي شريحة هاتف جديدة، كسرت شريحتي السابقة حتى لا أنتظر مكالمته، ولا أرِقَ، فأقرأ كلماته.

تعجّبت من نفسي، كنت كالآلة أتصرف بهدوء وترتيب وبلا مشاعر،

حالة تجمد وتركيز على الانفصال.

طرق الباب كثيرًا، ارتديت ملابسي، وفتحت له ببرود، ألقى السلام بحنان مبالغ فيه، حاول أن يسلم عليّ، فلم أصافحه، دخل إلى الصالة، فظللت واقفة أمام الباب.

«ادخلي يا رحاب، حقي عليكي تسمعيني».

«ماشي بس بشرط».

«إيه؟».

«نتطلق رسمي، وبعدها هسمعك للصبح».

«إنتي بتقولي إيه؟ إرحمي نفسك وارحميني، أقسم بالله العظيم الست دي لا تعني لي أيّ شيء، ورُحت

قابلتها مضطرّ عشان فضلت تلح إني أشوف لها شقة، قلت ارتاح من زَنّها».

«اقعد مع الولاد براحتك، هنتظر عند الجيران، لما تخلص خلًي الولاد يندهولي».

«استنّي يا رحاب».

«إنتا مش راضي تفهم، وشكلك مُصِرّ ترهقني، حاول متكونش أناني لمرة واحدة، لو مش لاقي مكان تبات فيه، هنمشي إحنا، بس موعدكش إنك هتقعد فيها كتير، هتطلق وهرجع، أنا حاضنة».

«شقة إيه اللّي بتتكلمي فيها؟ وهيًا الشقة إيه لزمتها من غيركم؟».

«صح، وإنتا كمان بتعرف تدوَّر على شقق وتجيب بسهولة، ده إنتا تقريبًا سمسار وأنا مش عارفة!».

«ليك حق تقولي كده، أنا غلطان، وأستاهل كل اللِّي يجرالي، لكن هموت من غيرك يا رحاب، مقدرش أعيش من غيرك».

«لأ، تقدر هتعيش أحسن عيشة، أنا خلاص قِدِمْت وبقِيت أمّ العيال المكعبرة اللّي بطنها قدامها متر، اللّي حبها مضمون، وقليلة الحيلة بعيلين والتالت في الطريق».

«عمري ما فكَّرت فيكي كده والله العظيم».

«ميهمنيش».

«عمري ما خنتك، ولا فكرت أخونك، ولا شايف ست في العالم غيرك».

«كلامك حلو يخبل؛ لكن الحقيقة إنه مع أول طيف أي واحدة ملهاش لزمة مجرد ما تشاور لك بتقع، مش بتحتاج أدنى مجهود!».

«عمره ما حصل والله، كنت بساعد بس، بس غلطت، أنا غلطان».

«ربنا يسامحك، بس بالنسبة لي ده غلط مش مغفور، ومقدرش أتعايش معاه، أنا مطمئنة في حياتي، بصون مشاعري قبل سلوكي، شبعانة بيك وعمري ما حسيت ولا حبيت نظرة ولا كلمة ولا قرب من حد غيرك، ومتقوليش الراجل غير الست عشان

الكلام ده عمره ما دخل دماغي، اللِّي مش بيحب مش بيفرق إن كان راجل ولا ست، واللّي بيخون مبيفرقش إن كان راجل ولا ست، واللَي بيستهين بحب التاني وبيستهتر بيه عشان ضامنه مبيفرقش إن كان راجل ولا ست، ربنا أمر الراجل والست بغض البصر، ومقالش على المرأة اللّي بتغلط زانية، والراجل الي بيغلط معذور».

«زنا إيه ربنا يعافينا».

«تصدق إني دلوقت حسّة إني هتطلق منك مش علشان الخيانة؛ لكن عشان قلة الفهم، إيه ده هو إنتا بجد مفهمتش كلامي، ومسكت في آخر جملة».

مش عارفة كنت بكلمه كده إزاي! عمري ما قللت احترامه، ولا ركزت على ضعفه، عمري ما أحرجته قدامي، كنت بخاف أجرحه دايمًا مهما كان، ومش عارفة إزاي كنت صامدة لا بكيت ولا حنيت.

«هفضل أقول لحد ما أموت لا خنتك ولا عمري هخونك».

«الخيانة مش إنك تعاشر واحدة في السرير، الخيانة إن واحدة تعدي في حياتك فتقدر تلعب بيها، وتلعب بِيّا، وتكذب عليَّا بسببها، وتروح تقابلها، وتقعدها مكاني، وتعزمها في كافيه، وتبقى رجلها اللّي بيساندها عشان ملهاش حد، لو ده عمل صالح وعاوز ترتاح من زنها كنت خدتني

معاك، أو خلتني أتواصل معاها، لكن أنا وإنتا عارفين إن الموضوع كان فيه رسايل وهزار على الواتس وإعجاب، احترم عقلي على الأقل».

«ماشي، أنا غلطت، بس مغلطتش أوي، ومفيش حد مبيغلطش».

«حلو، غلطتك اللّي مش أوي دي بالنسبة لي النهاية، ولو دي غلطة مش أوي عشان إنتا راجل والرجالة بتعمل أكتر من كده، يبقى الحمد لله كفاية على كده جواز، أنا يا سيدي لا أصلح للجواز»!

طلع جنى ومروان يسلموا عليه، رحت عند الجيران، وانتظرت لحد ما خبطوا عليّا.

الليلة دي كانت من أغرب ليالي حياتي، حسيت بارتياح، لا بخوف ولا تفكير في المستقبل، مع إني مكنتش بطيق قبل كده زعله ولا بعده، كنت بقعد الساعات لحد ما يرجع، واشتاق لصوته وصورته لو سافر؛ لكن كنت دايمًا حسَّة بالتهديد.

اختبأت في حضن طفلَيَ، ونمت بجوارهما هربًا من حنين يهاجمني، أو غضب يحرقني.

على مدار 10 سنين، عمري لم أغضب عند أهلي يومًا، ولا اشتكيته لأهله، ولا طلبت الطلاق مهما كان حجم المشكلة؛ لذا فإن ردَّ فعلي هذه المرة كان مفاجئًا لي وله، لم تكن قضيتي أن أسامحه؛ لأنّي أحبّه، فقد

شعرت فجأة بتحول في مشاعري، كان فبان، نعم أنا رومانسية، ولكن الجزء الأكبر من الحب عندي يقبع في العقل، إذ تكشف لي الرجل الذي أحببته هزيلًا ضعيفًا غبيًا، فكيف أقنع عقلي بالاستمرار في حبه؟! لم أكن حزينة على نفسي، ولم أشك فيها كما تفعل الكثيرات بسؤال أي نقص في جعله يتطلع لغيري؟ كنت حزينة عليه، وكأنه مات، شعرت بفراغ في قلبي مؤلم لفقداني الحب الذي طالما ملأ قلبي، الحب مبهج، وقد فقدته، على هذا حزنت، أما لماذا خان، فهذا نقصه هو وخسارته أفدح مني، وعندما يغيب الزوج والأب والحبيب، فإن الحياة تتعرض لاختلالات كثيرة،

فكان همِّي أن أسُدَّ الخلل، وأقلل الضرر، وأعوض الغياب، مستعينة بأختي وصديقاتي، ومالي، وبنفسي، فحرصت أن ينتظم يوم طفلَيَّ، ويستمرَّا في تمارينهما، وعاداتهما، حتى لا يبقى سوى عبء القلب الذي لا مفرَّ من معاناته والأيام تتكفَّل به.

حاول كثيرًا أن يتواصل معي؛ ولكنني حذرته بشكل عنيف، إن خرج الأمر عنا، وشاع بين الأهل والصحاب، فلن يكون لي خيار سوى الانفصال التام وبدون تفكير.

قلت لأهلي أنه مسافرٌ سفرًا ضروريًّا، ولم يعرف الحقيقة سوى أختي التي لازمتني أغلب الوقت.

وضعت حملي، وجاءت طفلتي الجميلة إلى هذه الحياة، فارتاح قلبي، وذهب وهني، وشعرت بالمزيد من القوة، اجتاحتني لبعض الوقت مرارة غيابه عن ولادتها، ولكنني سرعان ما نبهت نفسي إلى نعمة سلامتها واكتمالها، وصحتي وعافيتي، ثم إنه هو الخاسر، جنى على نفسه بيديه، وفقد سكنه وراحته ولحظة لا تُعوض، لأجل عبث لا يستحق، ونعمة لم تُصَنْ.

طرق بابنا من جديد، يطمئن ويريد رؤية ابنته، حملتها إليه أختي، وطلب الاطمئنان عليّ فرفضت، فأبى أن يرحل وظل يبكي ويردد: آسف من كل قلبي، سامحيني.

ونادى الطفلين، وتوسل إليهما أن يبقى، قمت على وهن أطلب منه بشدَة ألَّا يقحِمَ الصغيرين في مشاكلنا، وطلبت منهما الدخول إلى غرفتهما، فتمسك بهما، وجثى على ركبتيه: لو ليهم خاطر عندك خليني وسامحيني.

أصررت على دخولهما، وسألته بضيق: هيًا لما عرفت إن العربية مش بتاعتك رجعت في كلامها واهتمامها ولّا إيه؟

هيًا مين يا رحاب؟ هيًا ولا حاجة، أقسم بالله ما شفتها من يومها، ولا كانت تعني لي شيء، سوء تقدير وغلطة غبية.

تدخلت أختي، وطلبت مني أن يبقى، وقالت: خليه جنب ولاده، واتخاصموا في البيت براحتكم، مفيش داعي الولاد يتعبوا أكتر من كده.

السؤال الأهم بعد الخيانة ليس عن الاستمرار في الزواج أو لا، ليس عن ردّ الفعل الظاهر، ولا عن الانتقام، فللطلاق حساباته، وللاستمرار ضرورته أحيانًا، السؤال الأهمّ عن تكييف الخيانة، وتفسيرها، والتعامل مع النفس والحياة بعدها، قد تطلق امرأة وتبقى كسيرة، وتستمر أخرى وتعيد ترتيب أوراقها بالكامل.

لا قاعدة تحكم جميع النساء فيما يتعلق ببُعد الخيانة، ليس من حق

أحد أن يفرض على المرأة اختيارًا وحيدًا، باعتباره الصوابَ، وما سواه ذلٌّ ومهانة.

الطلاق في حياة أغلبنا ليس قضية قلب فحسب، هو قضية بيت، وأطفال، واستقرار، وتعوُّد، واحتياج، وحب، وأمان، قضية معقَّدة تحكمها الكثير من الظروف والملابسات، فلا الطلاق يعني الكرامة، ولا الاستمرار يعني الضعف، قد يكون الطلاق هروبًا، والاستمرار محسوبًا.

ملوخية أم محمود

«إحنا بنشكر جهد الزميلات؛ لكن بستأذنهم يخلُّو الجانب الميداني ده للرجال، ودي مش عنصرية ولا حاجة، هي بس الحياة خلتنا نبقى مطلعين على الجانب الميداني أكتر، أنا بشارك في دراسات ميدانية من وأنا في تانية جامعة، بقالي 25 سنة بزور المدارس في القرى والنجوع والعشوائيات، في الوقت اللي إخواتنا الزميلات فيه كانوا بيظبطوا طشّة الملوخية».

تعالت أصوات الضحكات والقهقهات ردًّا على الدعابة السَّمِجَة

للسيد المدير، بهدوء شديد اقتربت من المايك المثبت على المائدة أمامي وقلت: «ياريت تخلّي طشة الملوخية لأمك»!

ساد القاعة وجومٌ وسكونٌ، وحدّقت في مئات العيون، ابتسمت وقلت: «لا أقصد الإساءة إطلاقًا، الأستاذ محمود زميل عزيز وقديم، وأنا أعني ما قلت حرفيًا، أنا ذقت ملوخية والدته، وهي أطعم ملوخية في العالم، وهي سيدة فاضلة وعزيزة، وحذاؤها على رأسي ورأس الأستاذ محمود، ولكنها بالفعل لم تتح لها فرصة عمل دراسات ميدانية، مش بس علشان كانت بتربي 7 أطفال،

وبتظبط لهم الملوخية، ولكن عشان ده مكانش اهتمامها ولا مجالها».

أخذت نفسًا وقلت ضاحكة: «لكن الزميلات الموجودات في القاعة، وأنا أقلهن شأنًا سؤال الملوخية والدراسات الميدانية ده مجالناش في ورقة الامتحان، زي بالظبط الأستاذ محمود مكانش مجبر يختار بين النجاح في عمله وبين لعبه للاسكواش، أو إنه يتجوز ويخلف ويكون أب كويس، فياريت لما نكون مجتمعين لشغل مش قاعدين على البلاج بنهزر، منخلطش الحياة الشخصية بالعملية، وكل واحد يحتفظ بأفكاره لنفسه وأهله».

واستدركت: «وتاني، أهله هنا مش شتيمة، أقصدها حرفيًا».

صفقت الحاضرات، إحداهن كانت شابة طموحة تحاول إثبات نفسها لحقت بي بعد الاجتماع، وصافحتني بحرارة قائلة: «مش عارفة أقول إيه لحضرتك يا أستاذة ليلى، بشكرك جِدًا على ردّك النهاردة على محمود بيه، أنا كنت محتاجة أسمع الرد ده وأشوف نموذج زي حضرتك، لإني بواجه عنصرية، وتقليل من شأني في شغلي خصوصًا كلّ ما أحقق نجاح».

ربتُّ على كتفها قائلة: «دي من ضرايب النجاح حبيبتي، كملي ومتشغليش نفسك بيهم».

ضحكت وسألتني: «ممكن أسأل حضرتك سؤال غريب، عشان أنا متجوزة جديد، هو حضرتك بتعرفي تعملي ملوخية هاها».

غمزت لها وقلت: «وأحسن من ملوخية أم محمود».

ضحكنا، وأعطيتها رقم هاتفي، كنت أعلم تمامًا ما تعانيه، أمامها رحلة طويلة ستحترق فيها أعصابها كثيرًا، وتدخل في معارك لا حصر لها، مضطرة أو غاضبة أو نادمة، وستواجه أنواعًا شتى من الرجال والنساء يجمعهم على اختلاف أفكارهم شيء واحد، «شعور وهمي بأن رأيهم فيها مطلوب، وأنهم حكام عليها بشكل أو بآخر».

أعرف أن محمودًا غضب، وسيأخذ مني وقتًا ليصفو؛ ولكنه سيصفو في النهاية، فنحن عشرة عمر، كنا زملاء في الجامعة، وعملنا في نفس المديرية سنينَ، وأعلم أنه يُكِنُّ لي معزَّة كبيرة، كما أبادله التقدير نفسه، ولكنه ومنذ كنا صغارًا يعاني من الغيرة، وتشتعل غيرته أكثر إذا كان المنافس امرأة، حتى زوجته تعاني من غيرته، فهي طبيبة ناجحة؛ ولكنه يستخدم معها «سلاح الملوخية» كلما اشتدت عليه «النفسنة».

كنت معتادة على مواجهة سلاح الملوخية، لم يكن عليَّ فقط أن أعود إلى البيت فأخلع ثوب «أبلة الناظرة»، والمديرة قوية الشخصية

واسعة العلاقات والأنشطة لأرتدي ثوب المطبخ، وأصنع حلة ملوخية يستمتع بها زوجي وأولادي؛ بل كان عليّ أن أواجه محاولات، وتلميحات زملائي الرجال الذين لا يخجلون من معايرتي بالملوخية عند شعورهم بالنقص أمامي، وأن أواجه ذلك المتنمّر الذي يقود سيارته بكلّ رعونة؛ ولكنه يُصِرّ على أنني المخطئة وأن «الستات مالهاش في السواقة، وياريت يخلوهم في الملوخية»، وأواجه ذلك الأحمق الذي لا يستطيع مواجهة حجتي في نقاش على «السوشيال ميديا» إلّا بتعليق من نوعية: «سيبي الكلام ده يا ست وروحي اعملي ملوخية».

شيءٌ عجيبٌ، ومثير للضحك والشفقة، تعايروننا بإطعامكم!

ولكنني معتادة على مواجهة العنصرية الذكورية إلى الدرجة التي جعلت مواجهتها «نمط حياة» بالنسبة لي.

متمرسة منذ الصغر، فقد كَبُرَ جسمي، وبدت معالم أنوثتي مبكرًا، كنت أشعر بحماس المراهقة، والكثير من الثقة في النفس، كنت أظن أن هذا العالم لي، أحب الحياة وأقبل عليها؛ ولكنني اصطدمت بأنَّ للشارع رأيًا آخرَ.

للشارع رأيٌ في حركاتي وسكناتي، في ألوان ملابسي ونوعية حذائي، للشارع لوائح غبية غير مكتوبة،

حرمني بمقتضاها من ركوب الدراجات، وقد كنت أعشق ركوبها، وطالما تفوقت في طفولتي على إخوتي البنين، وأقاربنا في التحكم فيها، وكان بإمكاني أن أذهب بها للمدرسة كما يفعل أخي؛ ولكنه لم يكن مقبولًا.

لا يهمّ الشارع من أكون حقًا، فهو يسيء الظن بي مُقدمًا، ضحكتي قلة أدب، وأكلي قلة أناقة، وقوفي مريب، وانتظاري لصديقة شبهة، وسلامي على قريب أو زميل خطيئة، وفي كل الأحوال أنا مهدّدة بفرض رأيه عليّ، وإحراجي وملاحقتي.

لدى الكثير من الذكور في الشارع، ومنذ أن ينبت لهم شنب إعدادي،

اعتقاد مجهول المصدر بأن الإناث فيه معروضات لإبداء الرأي، هذا لمن تلقَّى قدرًا من التربية في البيت، فهذه «قمر»، وتلك «بسبوسة»، وهذه «وحشة»، وقائمة طويلة للوصف، وكأنه في سوق الملابس المستعملة تجبره أمه على الشراء فيطلق أوصافه على كلّ قطعة.

البعض يعتبر الشارع ساحة مجانية لإظهار المواهب، مع هذه المخلوقات الأنثوية الجذابة المغلوبة على أمرها، مهارات الغناء مثلًا تمرَ فتاة بيضاء، فيباغتها بـ «وقعت في الحليب ما بينت له عكارة»، تليها سمراء «سمرا يا سمرا يا حلوة يا

سمرا شغلني هواكي، إنتي الكاس وشفايفك خمرة».

ومواهب الكوميديا اللزجة، والتدرُّب على الألفاظ القبيحة، والاستمتاع برؤية صدمة الفتيات، وخجلهن.

هذا عن قليلي التربية، أما معدوميها فإنهم يتحرشون، ويتعقبون ويهددون.

لم يكن الشارع لي، عرفتها مبكرًا جدًا، لا في المدينة، ولا في الريف، ولا على شاطئ البحر، يجب أن أتسلح في الشارع باليقظة والجَدِّيَة الزائدة واللسان الطويل والدبوس، وبخاخ الفلفل إذا لزم الأمر، المهم أنني قررت ألَّا أكون الراضخة للبذاءة،

أو المجروحة من التعليق، رغم وصية أمي بأن أسكت وأمشي في حالي، كان خارجًا عن إرادتي، لا يمكنني أن أبتلع غصة التحرش في صمت حتى لا أفتضح، ولماذا أفتضح أنا؟ هل أنا من تحرشت؟ أم تراه جسدي هذا الملعون المتهم دومًا؟

ولا يمكنني أن أبيت باكية؛ لأن أحدهم مدحني، أو ذمّني، أو خدش حيائي بألفاظه القذرة، له لسان بذيء، ولي لسانٌ فصيحٌ، هو وقح وأنا شجاعة، وإذا ظللنا هادئات متقبّلات خائفات، فسيظل «الهِرّ يحكي انتفاخًا صولة الأسد».

في الجامعة كان هناك أصناف من الدكاترة والزملاء، بعضهم طبيعي،

والآخر يعيش معركة مع نفسه تتجلّى في الإناث، فهذا متحرّش جسد الأنثى قد وجد فرصة لإثبات رجولة مشكوك فيها، وذاك يعاني من «فوبيا النساء» غالبًا ما يغلفها بالدين، عداء مرضي غير قابل للعلاج، فالمرأة أصل الخطيئة، ناقصة في كلّ شيء، ماكرة خادعة، وغبية في الوقت نفسه، فاسدة بذاتها مفسدة لغيرها، ولكي تتجنب سخطه وضيقه، فعليها أن تختبيء، وترضخ لكونها آثمة، وإن لم تأثم، تقبّل أن تكون تابعًا مطيعًا، وتقتنع بأن هذه خلقتها، ومراد الله فيها، ولا يهم كلّ تلك النصوص الصريحة في كون المرأة شقيقة

للرجل، والجمع بينهما في الأمر والجزاء.

لدى هذا المتشنج من المرأة قناعة بأن الرجال يجردون أيَة امرأة من ملابسها ولو في خيالهم، وهذا لا يمنع أن يكونوا محترمين، لأنها ببساطة «فطرة الرجل»، وآه من هذه الفطرة المفترى عليها والمتحملة لكل تشوهات الخلق زورًا، ويؤكد هذا المُدّعِي أن الرجل الطبيعي يركز على مفاتن المرأة، ومن لا تقتنع بهذا فهي خيالية ومُصِرَة على أنَ تحكم على الرجال بمنطق كوكب زمردة!

تصدق كثير من الفتيات هذا الفكر، ويحاصرهن بزعم الفطرة والواقع والدين، فيشعرن بالذنب من

وجودهن، وضرورة الاختفاء منعًا للإيذاء وتدمير كوكب «الخيال المريض»، وكأنه ذنبها أن غيرها مهووس، وكأن عليها أن تلغي كيانها وعقلها، وكل مواهبها، وقدراتها فقط؛ لأن المأسوف على خياله يجردها ولا يرى إلَّا مفاتنها.

وهناك عدو المتشنج، المتفلت الذي يرى الحياة نزهة قصيرة يبدي فيها اعتراضاته، ويثير زوبعات شكه، ويقدم نفسه على أنه مناصر المرأة من الظلاميين، حتى إذا سرت معه قليلًا، وجدته يجردها فعليًا وليس في خياله.

وبين حرب الدعايات والشعارات ومعارك الأيديولوجيا، لا يصبح في

العمر بقية لأن تبحث «هي» عن شغف ولا هدف، فقط تسعى لأن تكون مقبولة.

ثم هناك من لا يرون المرأة سوى مخلوق جميل للترويح عن النفس، ومصدرٍ للحنان والمتعة، للحب والعزاء، فلتكن بسكوتة «طعمة» لتحلية الفم من مرارة الحياة، وليحميها هو من كلِّ كسرٍ محتمل، ولا شكّ في أن البسكوتة تحتاج لمن يستمتع مذاقها، ويحميها، لتظل بسكوتة لذيذة؛ ولكن هذه البسكوتة الرقيقة هي نفسها اليد القوية التي تحمله إذا وقع، والعقل الواعي الذي يكمله، والنصف الكامل الذي يشاركه

الرحلة، وحصار البسكوتة هو أكثر ما يكسرها.

ثانيًا: الحكايات

أنضف بيت في المَجَرَة

ماما كانت أم عاملة ناجحة جِدًا وقوية، اتطلقت في منتصف العمر، ولقت نفسها فجأة شايلة همّ 3 عيال لوحدها، ومضطرة تِهلك نفسها في الشغل مع أب اتخلّى تمامًا عن مسؤوليته بالطلاق، أنا اللّي كنت عارفة قد إيه هيَّا تعبانة، بحكم إني أكبر إخواتي، وكان عمري وقتها 13 سنة، كنت عارفة إنها بتروح لدكتور نفسي، وفِضلت تاخد علاج لفترة طويلة، أنا اللّي كنت بحس بيها وهي بتبكي في سريرها، وكل ما كنت بكبر شوية كنت بحس بحملها وتعبها، لكن

للأسف مكنتش دايمًا بقدر أساندها، كنت مراهقة وأنانية شويتين تلاتة، ومكنتش أعرف ممكن أعمل إيه عشان أخفف عنها غير إني أبقى شاطرة جدًا، وده كان كافي بالنسبة لها.

مع الوقت هموم أمي المالية كانت بتزيد، إحنا بنكبر، واحتياجاتنا بتكتر؛ لكن هيَّا كمان كانت بتقوى وتتعود ونفسيتها بتتحسن، مفيش شك كانت بتمرّ أوقات صعبة، وأيام مش عارفة عدّت علينا إزاي، خاصة لمّا كان طليقها اللّي هوَّا المفروض أبويا بيقعد يهددنا إنه يطلعنا من الشقة وكل شوية يرفع قضية، كنت بشوف الست الجبلية اللّي محدش بيشوف دموعها

بتتهز، وتقع وتبكي ويهرب النوم منها، لكن الغريب إنها ولا يوم أظهرت الضعف ده برَّه حتى لصاحباتها، وعمرها تقريبًا ما غابت عن الشغل، حتى أجازاتها العارضة يمكن مكانتش بتخلصها، عمرها ما كسلت يوم ومعملتش أكل، معاها فلوس أو مش معاها لازم هيكون فيه أكل كويس، هتتصرف وتعمل من الفسيخ شربات، بس لازم هنرجع من المدرسة نلاقي غدا كويس، مش عارفة إزاي قِدرت تكمّل كده طول السنين دي، لا بتكسّل ولا بتظهر ضعفها، أنا شايفاها أكتر ست في العالم تستحق لقب «إسترونج إندبندنت»، لكن زمان مكنتش معجبة بيها أوي كده، كنت

ناقمة على حياتنا ككل، القلق كل شوية، والشعور بالتهديد وإننا ممكن منستقرش في بيتنا الجميل اللّي كبرنا فيه، إحساس إن أبوك أكبر تهديد لك، والأم شايلة لوحدها كل هموم الدنيا بيخلّي فيه مزيج من الولاء لها والسخط على الوضع ككل، خاصة مع المقارنة بحال الآخرين الظاهر لي وقتها، وسؤال: «إشمعنا أنا» اللّي عذبني طول مراهقتي.

مشكلتي مع أمي مكنتش أبدًا على المذاكرة، ولا على الفلوس، كنت مريَّحاها في الاتنين، دايمًا الأولى، ودرجاتي نهائية ومش بحتاج دروس، ولا عمري طلبت منها فلوس زي

إخواتي، مشكلتي معاها كانت «هوسها بالتنضيف»!

أم عاملة وحيدة، وعندها بنتين وولد، شغلها مرهق جِدًا، بتعمل كلّ حاجة لوحدها مش مسنودة على حدّ، ومش عاوزة تحسّس ولادها بالنقص، فبتعمل حاجات كتير فوق طاقتها، كل ده مكانش مكفّيها، كان عندها هاجس غريب اسمه: «بيتي لازم يكون أنضف بيت».

اللحظة اللّي كانت ماما بتندب حظها فيها حرفيًا كانت لمّا بتلاقي البيت متبهدل، كانت بتطالبنا دايمًا بمستوى جنوني من الترتيب والنظام، ومعندهاش حاجة اسمها تأجيل، أو نستنّى شوية مثلًا نستمتع بحاجة، لأ،

ننضف الأول وبعدين نبقى نشوف، ولأن التنضيف مش بينتهي، فهيَّا كانت دايمًا بتنضف، هي اللَي كانت بتنضف لوحدها، ومش بتجيب حد يساعدها عشان توفر الفلوس اللَي احنا محتاجين كل جنيه فيها، ومكانتش عاوزانا نساعدها؛ لكن كانت عاوزانا دايمًا نحافظ على النظام، وده كان بيخلِّي التوتر دائم في البيت، مفيش يوم بيعدِّي من غير خناقتين تلاتة على الأقلَ بسبب الإهمال، كنت بشوف أمي القوية الرصينة بتصرخ، وممكن تبكي وتفتكر القديم والجديد، وهي بتردِّد: «إنتو عاوزين الناس تقول عني إني بيتي سويقة، لأاااا! أنا بيتي هيفضل دايمًا أنضف بيت».

لو حد من خالاتي، أو أصحاب ماما جالنا زيارة مفاجئة مثلًا، وكان البيت مكركب شوية أمي كانت بتحزن حزن غريب، أعتقد إن إحساسها بتقدير الذات هي جمعته في موضوع التنضيف، التوتر اللّي في حياتها كله اتجمّع في الموضوع ده.

الغريب إنه رغم اختلاف ظروفي عنها، آه عندي 3 أطفال زيها، لكن مش بشتغل، وجوزي عمره ما علق على حاجة في البيت، لكن دايمًا حسّة بهاجس «إنه لازم بيتي يكون أنضف بيت»، مش عارفة بالتحديد أنضف من مين، ولا مين اللّي معايا في السباق، بس فيه إحساس كلّ يوم

إني في امتحان، وممكن حدّ يطبّ عليّا، والبيت يبقى متبهدل شوية وده كان بيفزعني، رغم إني ياما حاولت أقنع أمي زمان إن رأي الناس مش مهم، وإن كوباية شاي بعد الغدا تشربها بروقان في البلكونة وهيّا سرحانة في الولا حاجة أهم مليون مرة من تشطيب الحوض، وإن المواعين تستنّى في الحوض شويّة؛ لأنه المواعين مش هتخلص ولا هتزهق من الانتظار.

أمي هي أعظم امرأة في العالم في قلبي، مهما فعلنا لن نوفّيها حقها؛ ولكنها برأيي أرهقت نفسها، وحمّلتها فوق ما تطيق، وكم ودِدت لو أنها لم تهتم بنظرة الناس إلى هذا الحد، ولو

أنها اكتفت بحملها المضني، وسمحت لنفسها ببعض الراحة، «الراحة»، تلك الكلمة الغريبة التي لم يعرفها قاموسها يومًا.

ما زلت أقاوم؛ كي أشكِّلَ بيتي وِفْق قناعاتِ أن أتحرَّزَ من صنم «المثالية»، أن أكون أوَّلًا حتى أستطيع أن أمنح من هم تحت مسؤوليتي.

أن نظرة الناس لا تصنعني، ولا تغيّر حقيقتي، ألَّا أدلِّلَ صغاري وأوبِّخَهم، وإنما أعلمهم الاعتماد على النفس، والمشاركة مع قدر مهمّ من التسامح، أن المواعين مش هتطير، والتنضيف مش هيخلص، وإن حصولي على عدد ساعات كافٍ من

النوم أهمّ من إن بيتي يبقى «جراند أوتيل»، وصِحّتي النفسية، والجسدية أهمّ من غسل السجاجيد، وتلميع الباركيه.

جاريةٌ بعقدِ زواج

«إيه ده أعوذ بالله في إيه؟!»، قال لها وعلامات الاشمئزاز على وجهه بعد أن فتحت له باب البيت.

«إيه في إيه؟ إنتي شفتي عفريت؟» قالت بوهن قبل أن يمسكها تدخل في نوبة عطس.

«إنتي شفتي منظرك في المراية؟».

«ماله منظري؟!».

«مقرف»!

رمقته طويلًا، ثم قالت بغيظ: «المفروض أبقى عاملة إزاي وأنا

عندي أنفلونزا مبهدلاني؟».

«سلامتك يا سِتّي» قال بملل، أتبعه بلهجة تحذيرية: «إوعي أشوفك تاني كده حتى لو أبوكي مات»!

دخلت إلى غرفتها لتستعد لليلة، كان البرد يفتت عظامها، وعيناها تتثاقلان رغبة في النوم والراحة؛ ولكن لا مفرّ من الليلة، تزوجها لمزاجه، ومزاجه لا يعرف الرحمة، ولا يأخذ إجازة.

آخر ما تريده في العالم في هذه اللحظة هو التعرّي! وآخر ما تحتاج إليه رجل يشتهيها، كانت بحاجة إلى الدفء، إلى كفٍّ حنونٍ يداعب شعرها مع كوب ليمون.

ابتسمت متهكمة على خيالها الساذج، وأكملت استعداداتها دون أن تقوى على النظر في المرآة، كانت خجلى من نفسها، ومن كلماته التي عرّتها، كلماته في الغضب تضعها أمام الحقيقة بدون تجميل، هي جارية بعقد زواج.

«أووووف»، صرخ فيها.

«مالك؟».

«مالي إيه بس؟ ده أنا لو متجوِّز لوح تلج كان إتأثّر».

«متخافش العيب مش فيك، إنتا تقدر تحرّك التلج، بس أنا أبرد من التلج، مش مهم كل الليالي اللّي كنت فيها زي ما إنتا عاوز، لو ليلة واحدة

كنت مش في الفورمة هبقى ست باردة وواقفة عليك بخسارة»!

«ليالي إيه اللّي كنت فيها زيّ ما أنا عاوز؟ قصدك التمثيل اللّي بقيتي محترفة فيه، ده إنتي، ولا مرة فاجئتيني، وبادرتيني يا شيخة مع إني اترجّيتك، يا شيخة حرام عليكي»!

«لا حرام عليّا، ولا حرام عليك، أنا مش قادرة أكمّل في دور العاهرة ده، طلقني وارتاح وريّحني، مراتك هتجوزك واحدة أحسن مني»!

«عاهرة!»، قال مشدوهًا، وتابع: «إنتي بتسمّي متعة الراجل مع مراته في الحلال عهر؟ إنتي مين لاعب في دماغك يا بنتي؟ بتكرهي الجنس أوي

كده ليه؟ ده فيه آلاف بيتمنُّوا اللّي إنتي فيه».

دخلت في نوبة ضحك، فسألها مستنكرًا: «بتضحكي على إيه؟! على خيبتك؟».

قالت ضاحكة: «بالظبط، بضحك على خيبتي، تصدّق إني في جوازي الأوّلاني كنت حسّة إني محرومة من الجنس، وكنت بتمنّى راجل يشبعني هههههه!».

قال ساخرًا: «ولمّا جالك قررت تندّميه على عيشته؟».

أجابت: «بقيت متمنية يعتقني لوجه الله، أشهد لك إنك شبعتني في وقت قياسي، وخلتني مش عاوزة

أكون في علاقة لحد ما أموت، ده أنا بفكر أروح أترهبن في جبال التِّبت!».

قال متضايقًا: «للدرجة دي بتكرهيني؟!».

قالت: «إنتا عارف إنِّي مش بكرهك؛ لكن خلاص تِعبت، مش قادرة أكون طول الوقت under call مش قادرة أتقبل نفسي، إنتا عاوزني طول اليوم متدلعة، طول اليوم تعاكسني وأعاكسك، وده حلو بس كتره كرهني فيه، تصدّق بالله، أنا مبقتش قادرة أبصّ لجسمي، كرهته!».

«إنتي محتاجة علاج نفسي، خاصة إنه كان عندك المشكلة

العكسية مع جوزك الأوَّلاني، إزاي تطلبي الطلاق للمشكلة وعكسها؟!».

«يا ريت يكون فيه علاج نفسي يخلِّيني أعرف أعيش في عالم يا إمَّا أبقى فيه زي الكرسي أو الترابيزة، أو أبقى جارية للجنس طول الوقت، اتدبح بسيف النقد كل ليلة، ولازم اشتغل مهما كان حالي، أنا لما اتجوِّزت تاني كنت فاكرة إن فيه حاجة اسمها حب، وإن الجنس مش بييجي لوحده، وبييجي مع باكدج الاهتمام والمراعاة والعاطفة مش بس في السرير، ومش بس عشان العلاقة».

واستدركت: «بس أنا موافقة أروح لدكتور نفسي، بشرط إنتا كمان

تروح، تتعالج من إدمان الجنس، صدَقني محتاجه».

ضحك على جملتها: «إدمان إيه يا هبلة؟ دي ميزة للراجل، هروح لدكتور أقوله أنا راجل مية مية، وعاوز أبقى خمسين في المية عشان مراتي معقدة؟».

وتابع: «بقولك إيه؟ ما تيجي نجرَب الفياجرا الحريمي؟ ولا إيه رأيك تتفرجي على حاجة، أنا معنديش مانع! أي حاجة تحرّكك، شغلي خيالك شوية!».

«بحب فيك روح الأمل والله، مفيش حاجة هتنفع معايا، أنا خلصت الخيال كله، مش عاوزة أصدمك بس أنا بقى عندي فوبيا من الجنس».

«يعني إيه؟».

«يعني سيبني ارتاح أسبوعين كده».

«نعم ياختي؟ إنتي متقدريش ترفضي، إنتي عارفة اللّي بتتمنّع على جوزها الملايكة بتلعنها لحد الصبح».

«أيوه عارفة، بس اللّي مش عارفاه ليه اللّي بيهمل مراته، أو يهجرها الملايكة مبتلعنوش، وليه اللّي بيستحلّ صحتها، وبيستبيح جسمها وهيّا تعبانة، أو زهقانة الملايكة مبتلعنوش؟».

خِيَانة امْرَأة مِثَاليَّة!

غادرت عملها مسرعة، كادت أن تقع، وهي تقفز فوق سلالم الدرج، تسارعت أنفاسها، وهي تحاول اللحاق بالحافلة، كان عليها أن تسابق الزمن حتى لا ينتظرها أبناؤها طويلًا، فقد عبَّروا لها مرارًا عن انزعاجهم من تأخُّرها في التقاطهم من المدرسة، ما أن وقفت الحافلة بالقرب من المدرسة حتى قفزت منها، وأسرعت الخُطى إلى صغارها الذين قابلوها بتجهُّم، وعاقبوها على بعض التأخير بصمتهم، وتقطيبهم طوال طريق العودة إلى المنزل.

دخلت المطبخ دون أن تبدِّلَ ملابسها، فقد كان عليها أن تسرع في تسخين الطعام الذي أعدّته ليلًا، حتى لا تتأخَّر على أبنائها في الغذاء، وضعت الطعام أمامهم، فتناولوه بضجر، معبِّرين عن انتقادهم لتشابه وجبات الطعام، قال الابن الأكبر إن زميله في الفصل يخبره عن أكلات مميَزة تعدُّها والدته باستمرار، كتمت الأم غُصَة، وتمنَّت لو يعرفون كم بذلت من جهد، واقتطعت من ساعات نومها لتعدّ هذا الطعام.

لم يكن من حقها أن تحظى بقيلولة مثلهم، رغم شِدّة حاجتها إلى النوم، نظمت البيت بسرعة، ونثرت زخَّاتٍ من معطِّر المنزل الذي يحبه

زوجها، وأسرعت إلى الحمَّام لتزيل عن جسدها المنهك آثار الإجهاد بوابل من الماء المنعش، ولهثت إلى غرفتها لترتدِيَ ثوبًا أنيقًا، وتجفف شعرها وتعطِّر، وضعت قليلًا من الزينة على وجهها، نظرت مسرعة إلى وجهها في المرآة، ابتسمت بمرارة، فقد طافت في ذهنها ذكرى لأيام بعيدة كانت تضع فيها الزينة باحترافٍ وتمهُّل، كانت تستمتع بأدقِّ التفاصيل، وتبحث عن الجديد، أما اليوم فقد أصبح التزيُّن مهمة، تمامًا كالطهي، ومذاكرة الأبناء، والعلاقة الزوجية، كلها مهامَ تهدف إلى إنجازها بأقلِّ قدر من النقد.

استقبلت زوجها بعد عودته من العمل، كان صامتًا شاردًا كعادته في الآونة الأخيرة، حاولت مرارًا البحث عن أسباب شروده، وإخراجه من دائرة الصمت؛ ولكن هذا لم يزده إلَّا ابتعادًا عنها، تناولا الطعام سويًا في صمت لم يقطعه سوى كلمات قليلة معتادة.

دخل ليحظى بنومٍ هانئٍ بعد ساعات العمل المرهقة، كان عليها أن توفر له هدوءًا يساعده على الراحة، وكانت تفعل بلا كلل، وبلا مطالبة بأن تحظى هي براحة مماثلة، فما أن يدخل لينام، حتى يستيقظ الأبناء، فتذاكر لهم جميعًا، لساعات متواصلة، وتتحيّن الفرص لتحضر الطعام في

هذه الأثناء، وبعد أن يفرغوا من المذاكرة، تصطحبهم في نزهة خاطفة ليغيِّروا جوَّ المنزل، ويتمكَّنوا من اللعب في الحديقة المجاورة، وكعادتهم لم يكونوا ممتنِّين لها، وكانوا يقارنون بين هذه النزهة البسيطة، وبين ما يحظى به بعض أقرانهم من الترفيه.

عادوا إلى المنزل، وحضَّرت لهم وجبة العشاء، كان زوجها لا يزال نائمًا، دخلت إلى الغرفة بهدوء، جلست على السرير إلى جواره، شعرت بالتعب يعمّ جسدها، وكأنه كان ينتظر هذه اللحظة الساكنة أخيرًا ليعلن عن نفسه، مدَّدت جسدها فوق السرير أغمضت عينيها؛ ولكن رنين

هاتفه الجوال قطع عليها مشروع غفوة، أمسكت الهاتف، فوجدت رقمًا بدون اسم، أغلقت الرنين حتى لا يقلق زوجها، قلبت الهاتف بين يديها، كان هاتفًا حديثًا، أصرَّ زوجها على اقتنائه، فقد كان حريصًا دومًا على أن يكون أنيقًا، وأن يظهر وسط زملائه بشكل ممتاز، كان يخصص جزءًا رئيسيًا من راتبه الشهري لمظهره، وأغراضه الخاصة التي لم تخلُ من بذخ، وكان عليها أن تُعوِّضَ النقص في البيت من راتبها الخاص، كان راتبها في الحقيقة هو الذي يوفر حاجات الأبناء، ويقيم أركان البيت، رغم أنه لا يبلغ حتى نصف ما يتقاضاه زوجها.

بعض زميلاتها كنَّ يمتلكن هواتف مثل هاتف زوجها؛ ولكنها بالطبع لم تحلم حتى بأن تكون مثلهن، سمحت لنفسها بأن تتعرف على الهاتف، فتحت بعض التطبيقات، أعجبها شكل الرسائل والمكالمات، لم يَدُرْ بخلدها، ولو للحظة أن تراقبه، أو تطلع على خصوصياته، كانت فقط تريد أن تتعرف على الهاتف المميَّز، الذي اضطرت لتغطية ثمنه من حاجات المنزل، فقط ليرضى؛ ولكن تجوالها في هاتفه كان به مفاجآت صادمة لها، فقد وجدت صورًا مبتذلة أرسلتها له عدة أسماء نسائية، عبر الرسائل الخاصة والواتس أب، ووجدت رسائل مغرقة بكلام معسول يفيض غرامًا

وسفولًا من وإلى زوجها، الذي كادت أن تصدق أن الصمت جزءٌ من شخصيته، والذي بالفعل نسيت طعم الكلمات الرقيقة منه، انتفضت نبضات قلبها، حتى لم تعد تشعر بتعبها الجسدي، مرّ شريط أيامها أمام عينيها، تسعى لإرضاء الجميع، والجميع ساخطون، نسيت تمامًا كلّ متعة خاصة لها، كلُّ حقٍّ لها في الراحة والضحك، وتقدير الذات، كانت مركز حياتهم، وكانوا يعاملونها كأنها متطفلة عليهم، توفر للجميع أسباب الراحة، ولا يفكر أحدٌ في راحتها، فهي نفسها لا تعتقد أن من حقها أن تكون سعيدة!

استيقظ زوجها ليجدَ الهاتف في يديها، ودمعاتها مكتومة في عينيها، قال لها بغلظة: ماذا تظنين أنك فاعلة؟!

لم ترد، فاستطرد: هل تراقبينني؟ كيف تسمحين لنفسك بالتفتيش في هاتفي؟

قالت بخفوت: هل تخونني؟

ردّ بتهكُّمٍ: أخونك! وهل تحسبين نفسك امرأة؟!

قام مسرعًا وارتدى ملابسه والتقط هاتفه، تعطّر وتأنق، وأغلق باب المنزل خلفه بقوة ليتركها بين نيران الصدمة.

ظلت الكلمة تتردَّد في رأسها: «وهل تحسبين نفسك امرأة؟!».

أحاطت بها الأسئلة التي لا ترحم: ماذا ينقصني؟ فيمَ قصَّرتُ؟ إنني أعيش من أجلهم ولكنهم لا يرضون! لقد تخلَّيت عن كلّ ما يُسعدني، ضحَّيتُ من أجلهم بكلّ شيء، اعتصرت قلبها المرارة، قامت بتثاقل، شعرت بحاجة شديدة إلى الصلاة، توضَّأت، وفي ظلام غرفتها توجَّهت إلى ربِّها، وكأنها لم تُصلِّ منذ سنين، بكت بين يَدَيِ الله، شعرت بأنها كانت غائبة طويلًا، وعادت إلى الوطن، أحست بالندم على الأيام المتتالية التي أضاعت فيها لذَّة الصلاة، ونسيت فيها اللجوء إلى خالقها.

هدأت نفسها، أضاءت مصباحًا خافتًا، مسحت من على مصحفها غبار الإهمال، فتحته، ومن بين دموعها بدأت تقرأ، يغلبها البكاء؛ ولكنها تقرأ، أغمضت عينيها، وفكرت في حياتها، لماذا؟

لماذا أحرم نفسي من كلِّ شيءٍ من أجل مَنْ حولي؟ ولكنَّ سياطَ نقدهم وسخطهم تظل تلاحقني!

لماذا لا أشعر بالسعادة، ولا يشعرون هم أيضًا بها رغم كلِّ ما أبذله؟

لماذا تغيَّرت مشاعر زوجي تجاهي؟ فلم يعد حتى يراني امرأة؟!

احتاج الأمر منها لأسابيع، حتى تُدركَ أن التعيس لا يستطيع أن يمنح

السعادة، ففاقد الشيء لا يعطيه، وأن التضحية ليست كلمة سعيدة، ولا تصلح اختيارًا دائمًا للحياة!

وأنّ إيجابيتنا الزائدة قد تخنق من حولنا كثيرًا، فيما نظن أننا نسعدهم بها، احتاجت لجلسات مع النفس، وتأمل لواقعها حتى تصلَ إلى قناعاتٍ غيّرت مجرى حياتها، وبدّلت ألوانها الرمادية الكئيبة، وبعد أن قدَمت على إجازة بدون مرتب من العمل، كانت أولى الخطوات التي اتّخذتها أن تُعلَم أبناءها الكثير من مهاراتِ الاعتماد على النفس، فكان على ابنها الكبير أن يصطحب إخوانه ذهابًا وإيابًا إلى المدرسة، وأن يضع كلٌّ منهم جدولًا لمذاكرته، ويجتهد في التحصيل

بنفسه، وأن يقتصر دورها على المتابعة، وضعت حدودًا لهم في معاملتها، فلم يعدْ مقبولًا لديها أن يتجهّموا في وجهها، أو أن يضعوها في مقارنات، واكتشفت كم يسعد الأبناء باحترام أمهم قبل أن تسعد هي، اكتشفت كم تستوي نفوسهم عندما تكون لديهم قواعد في التعامل معها مبنية على الاحترام! وجدتهم يقبّلون يديها، ويمتنّون لها، ويشعرون باحترام ذواتهم وهم يعتمدون على أنفسهم، ويمارسون الأدب والخلق الرفيع في علاقاتهم، كانت إيجابيتها، ومرونتها الزائدة، وسعيها لإرضائهم يحول بينهم وبين اكتمال النمو، يمنعهم من السعادة!

ومع زوجها، اكتشفت مذهولة أنه كان يحتاج أن يشعر بحاجتها! أنه كان يحتاج لشعوره بدلالها، لا بتضحيتها، أنه بداخل كلِّ رجل استعدادٌ لتدليل امرأة، وحمايتها وإسعادها، وأنها إذا لم تكن قابلة لاستقبال ذلك منه لفرط عطائها، وغرقها في دور التضحية، فسيبحث عمَّن تحتاجه.

ليس للخيانة مبرِّر، فالخائن يخون نفسه ودينه؛ ولكنَّ الأسباب قد لا تكون دائمًا مباشرة كما اعتدناها.

وتعلمت أن عليها ألَّا تتقمَّص شخصية المرأة الحديدية، وأنَّ على الآخرين أن يتحملوا مسؤولياتهم، وأن من ذكائها أن تدرِّبَ زوجها على

ممارسة أبُوَّتِه، فيشارك أبناءه، ويقترب من همومهم.

وأنَّ من حقها الإنساني أن تنام، فقلَّة النوم أسرع طريق للمرض الجسدي والنفسي، وأن الذي لا يرحم نفسه لا يرحمه الآخرون، وأنه دائمًا إذا ما كلفنا أنفسنا ما لم يكلفنا به الله، طال علينا الطريق، ووجدنا من سفرنا نصبًا، فلم يكلف الله المرأة النفقة والتربية معًا، ولم يحمِّلْها همّ الخارج والداخل، والأهم، أنها تذكَّرت أنّ عليها أن تكون متَّصلة بالله، وألَّا تشغلها دوامة الحياة اليومية عن ذكره.

عُقْدَةٌ بِالْوِرَاثَةِ

ترى وأنت طفل الحياة بقلبك، تتسلّل الأحداث والمشاعر إلى روحك بدون مصدّات دفاع، أغلب الفوبيا وأعقدها تنشأ في الطفولة، الصدمات التي تتحول فيما بعد إلى انحرافات، وربّما أمراض نفسية تحدث في الطفولة، ذكرياتُ الطفولة تصاحبنا بوعيٍ وبدون في بقية أيامنا، تشكل قيمنا، وتحدد خياراتنا، وتقف وراء تصرفاتنا الغريبة، وغير المنطقية كثيرًا.

كان أبي رجلًا حنونًا خفيفَ الظّلّ مراعيًا لبيته، ينفق بسخاء، ويمنح من

وقته، يتبسّط معنا ويلاعبنا، ولا يقبل بأيّة حال أن نتعرض للمهانة من أيِّ أحد؛ ولكنه كان مريضًا بداء النساء، لم يكن بِصباصًا عاديًا، ولا خائنًا هاويًا، وإنما «نسوانجي» درجة أولى!

المؤسف في الأمر، أنني لم أكتشف هذه المعلومة على كِبَر، ولا سمعتها من أمي وهي تسرد ذكرياتها، وإنما عايشتها يومًا بيوم، ورأيتها بقلبٍ دامٍ، ونفس حائرة، تألمت قبل حتى أن أعي ماهية الخيانة، وكبرت، وكَبُرَ معي الغضب والخوف، غضب من سلوك غير مبرّر، ومستعصٍ على العلاج، وخوف على أمي، وعلى بيتنا، وعلى نفسي أن أتعرض يومًا لمثل ما تتعرض له.

كانت حياة أمي عبارة عن سلسلة من الخيانات، على كل لون ومقاس، كانت شهوات أبي النفسية تَؤزُّه أكثر من الجسدية، شهوة الظهور والاستعراض والحصول على الإعجاب، متعة الكلام مع نساء كثيرات، والوقوع في بدايات الحب باستمرار، شهوة اقتحام حياة المرأة، ومعرفة أسرارها، ولم يكن بيدِ أمّي أن تمنعه، ولم يكن سلوكه لتقصير منها، فقد تزوجا عن حب، وبقيت جذوته بينهما، أعلم أنه كان يحبها، ولا يرضى لنفسه شريكة سواها، وأنها كانت تكفيه زوجة وحبيبة وصديقة، ولكنه كان مدمنًا على التسلّي بالنساء.

حبها له، ومزاياه الكثيرة، لم تمنع أن تعيش جحيمًا، لا يمرّ شهر دون أن تصلها مكالمة هاتفية على طريقة الأفلام القديمة بأن زوجك يخونك مع فلانة، أو يُرسل إليها أحدهم صورًا مشينة، أو تسجيلًا مُخلًا، أو أن ترى بنفسها وجهًا لوجه وبشكل لا يمكن تكذيبه تحرّشه بالخادمة، ومرحه المفرط مع البائعة، ومراودته للسكرتيرة عن نفسها.

كانت أمي ترتجّ، يتحول كيانها الهادئ إلى بركان، في كلّ مرة يزيد الجرعة، ويفوق معدل توقعاتها، فتصدم من جديد، وكنت ابنتها الكبرى، أتقمص مشاعرها، وأحاول احتواءها وطمأنتها، وكلما كبرت زاد

غضبي عليه وعليها، كنت ألحّ عليها في طلب الطلاق، وأن تستقلّ عنه وتثأر لكرامتها، رغم حبي لأبي؛ ولكن طلاق أمي منه مع كل ما يعنيه من تحوُّلات كان أحد أحلام الطفولة، كنت أتمنى أن أراها ثائرة، أن أشاهد قوتها، أن يلتئم جرح قلبي بتطهيرٍ قويٍّ وعاجل؛ ولكنها لم تفعل، حزنت وتغيّرت واتسعت الفجوة بينهما؛ ولكنها تحمّلت، ولا أنكر أنني بعد أن كبرت قدرت أسبابها، وإن لم تكن مقنعة تمامًا لي؛ ولكنني استشعرت موقفها، كانت تحبه، وتستظل به، تتحمَّل آلامه؛ ولكن لا تقوى على فراقه، لا تتحمَّل حرماننا منه واختفاءه من حياتنا، وكانت تعلم أنه

مزاجيٌّ مَلولٌ سريعُ التقلُّب، والبعيد عن عينه بعيد عن قلبه، حميت نفسي منذ الصغر بقرار: «لن أكون أبدًا مثل أمي»، قررت أن أكون قوية، وبشكل أكثر تحديدًا، ألَّا أقبل الخيانة مهما كانت درجتها، وألَّا أخاف من الطلاق مهما كان حبي وسعادتي.

وتزوجت، وقع قلبي في حبِّ مَنْ يضاد أبي شكلًا وموضوعًا، كان شابًّا ريفيًا خجولًا، الرجولة عنده أن يخاف على بنات الناس، لا أن يلعب بهنّ، حتى أبي نفسه قال لي مازحًا: «ربنا بعتلك واحد ابن حلال عكسي في موضوع الستات».

ولكنني لم أهنأ معه، ليس لأنني اكتشفت أن «كلهم مصطفى أبو

حجر»، ولكن لأن أشباح الطفولة طاردتني، ورغبتي في الثأر لأمي لم تفارقني، كنت أنتظر الخيانة مع كلَ طيف امرأة، وأرتاب في حالاته النفسية، إن سكت، فهو يفكر في إحداهن، وإن حزن، فهو يقارن بيني وبينها، وإن فرح فلأن حبًا جديدًا أنعش قلبه؛ بل وصل الأمر بي أن أصنع له الاختبارات لأرى ردّة فعله.

لامني المحبُون: «لماذا تخربين بيتك بيدك؟ وتفتحين النار على نفسك بلا سبب؟»،

وردّ الطفلة القلقة بداخلي: «لا أريد أن أضيع عمري مع رجل يخونني، لا يمكن أن أكون المرأة المستغفلة، كرامتي قبل كلً شيء».

ضيعت 10 سنوات من أجمل أيام العمر، وزهرة الشباب، في شكٍّ دائم، وغضب مستعرٍ، وتربُّص بزواجي، حتى أدركت أنني أخوض معركة ليست معركتي، وأستنسخ حياة أمي لأفعل ما تمنيت أن تفعله هي، معاناة أمي لم تكن معاناتي، لكلِّ إنسان في هذا العالم بصمة منفردة، وفخ العقل الأول هو التعميم، حتى الخائنين ليسوا متشابهين، وبداخل كلِّ علاقة سرٌّ اعتاد أجدادنا أن يدعوا «بتهدئته»، يكفينا ما نلاقي في حياتنا من أعباء واختبارات، ومدد الله يأتي ما لم نحمِّلْ أنفسنا مالا نطيق

ماذا لو تبقَّى من عمرك عامٌ واحدٌ؟

لم يتلطَّفِ الطبيبُ في إخبارها بالحقيقة، أمامك أقلَّ من عام، والأعمار بيد الله؛ ولكن السرطان في مرحلته الثالثة، وما باليدِ حيلةٌ.

تركت سيارتها، وعادت إلى البيت ماشيةً، كانت تتأمَّل كل ما مرَّ بها، حتى المظاهر التي طالما ضايقتها بحنين بالغ، كل ذرة حولها شعرت بمحبة عجيبة تجاهها، حتى المتسولين الذين طالما تأفَّفت منهم، حتى القمامة في الطريق التي كان الغضب يتملَّكها بسببها، هذه الأضواء

وألوان المحلات، وازدحام أصوات الأطفال المشاغبين، والباكين ومحاولات الأمهات لتهدئتهم، تملَّكها شوقٌ جارفٌ لكلِّ التفاصيل التي مرَّت عليها في حياتها، ولم تعشها، لأصغر الأمور التي كان غائبة عنها في همومها التي بدت لها تافهة جِدًّا الآن.

كلُّ مشكلاته مع زوجها السابق التي اقتطعت من عمرها عمرًا حزينا أليمًا مليئا بالشك والإحباط، حسرتها على عدم إنجابها، حسرتها على أن ينقطع أثرها من الدنيا وليس له من يخلفها، ويملك جيناتها، وصفاتها ويحمل عنها ذكرى، اليوم بدا لها ذلك كله ضئيلًا، وهي تعلم أن نفسها هي في طريقها للذبول، كانت أجدر بأن

تهتمّ بها وتراعيها من حزنها على أحلام مفقودة.

لم تقوَ على الصعود لبيتها، كانت تعلم أن الحزن، والخوف أكبر من أن يجعلاها متحمّلة لدفع الحياة اليومية، كما كانت تفعل في السابق. كانت تخشى من مواجهة نفسها، كمن يظن أن شخصًا عزيزًا عليه سيموت قريبًا، فهو لا يقوى على مواجهته.

ومن قلب هذه المشاعر المتلاطمة تبدّى لها نورًا في العماء، سأعيش في هذا العام كما لم أعِش من قبل، لو كان أسبوعًا واحدًا ما تبقّى لي في الدنيا، فسيكون أسبوعًا يعدل 40 عامًا مرّت كلمحة بصر.

سأفعل كل يوم شيئًا جديدًا؛ بل أشياء، سأعبد الله كما لم أعبده من قبل، سأتذوق كلّ يومٍ طعمًا جديدًا، سأرى ألوانًا جديدة، سأقابل أشخاصًا جُدَدَ، وسأعرف نفسي كما لم أعرفها من قبل، فربّما ألقى الله وقد عرفته أكثر، أليست العلاقة بين تذكر النفس وتذكر الله وطيدة؟ «نَسُوا اللَّهَ فَأَنْسَاهُمْ أَنْفُسَهُم»، وأنا سأعرف نفسي، سأسير في الأرض؛ وأتأمّل في وجوه الناس والطبيعة، سأفتح حواسّي بحقٍّ سأحيا، فلا يليق بالموت أن يأتيني وأنا هامد في انتظاره!

عجيب أمرنا، كم ندرك حقيقة الأمور وهي راحلة! كم نشعر بحبٍّ

أوطاننا ونحن في الغربة! كم نأسى على الأقربين بعد أن يرحلوا! كم نهدر الأوقات، ونحتقر الحياة، ونحن نعلم أن الموت محيط بنا!

حتى إذا ما ظننا أنه اقترب جِدًّا سرت فينا الروح متوقدة وثَّابة.

لم تَبِث ليلتها في البيت؛ بل ولا في المدينة، كانت صبيحة اليوم التالي تشاهد لأول مرة في حياتها النور تحت البحر، لم تكن تظن أن ثمَّة ما قد يُدهشها في الحياة؛ لكن سحرًا سرى في أوصالها، وهي تبصر على الطبيعة روعة الألوان والأسماك والأشجار والنور المتسلل في الأعماق.

طالما كانت تنظر إلى البحر بشكله المعهود، وهي لا تعلم أن تحته كلّ هذه الحياة، وكلّ هذا الجمال. سكينة عمَّت أرجاء قلبها، ما نعلمه وما رأيناه ما هو إلَّا قطرة في بحر الملكوت، وفي الليل كانت تطالع النجوم في قلب الصحراء، لا تذكر أنها تأملت النجوم هكذا من قبل، بعيدًا عن الأضواء، والضوضاء.

سابحة في الفضاء سبَحت، عدد ما خلق الله في السماوات، وتفكرت في جوهر الحياة، لا قشورها الغبية المرهقة، تفكرت فيما خلق الله في السماوات، وما غاب عنها من عوالمَ وحَيَوَاتٍ، كما كان عالم تحت البحار غائبًا عنها قبل ساعات.

وصلّت، كما لم تُصلّ من قبل صلّت، وتذوقت لذة الكلام الإلهي، وبكت خشية اللقاء، وحزنًا على الفراق، بكت، وغمرتها المودّة.

وراقبت الليل يتراجع شيئًا، فشيئًا أمام ولادة نهار جديد، هذه أنا، وهبني الله عمرًا جديدًا من بعد ليلٍ حالكٍ لم أراقب فيه نجومًا ولا صلّيت، كانت حياتي باهتة في غمرة المفقود، والمفروض، والمنسِيّ.

في اليوم التالي كانت طائرة، تلك التي عاشت 4 عقود تخاف الارتفاع، فوقها السماء وتحتها البحر، وهي بينهما يحملها صندوق ومظلة، أتلك هي نفسي ذاتها التي كانت ترتجّ بعد الطابق الثالث؟!

أهذه هي أنا التي لم تعد خائفة من شيء؟ عجبًا! ربما لو عشت 4 عقود أخرى كما كنت ما عشت أبدًا، عجبًا! ألم أكن أعرف أنني يومًا ما سأموت، هل كان على طبيب أن يخبرني بقرب أجلي حتى أتحرَّر؟!

كان الطب عاجزًا أمام حالتها، وكانت هي أيضًا عنهم في شغل، إذا استبدَّتْ بها آلامٌ سكنَتها ومضت، وإذا ثقلت عن الحركة تذوقت لذَّة الحياة جالسة وراقدة، مستمعة وقارئة وذاكرة.

لم تكن تلاحق الأمنيات، وإنما مقدرة لكلٍّ ما تبقَّى، فلاحقتها الأحلام، وشارك قلبَها ودربَها رفيقٌ،

وتشاركا البهجة مع أطفال فقدوا الملاذ، حُنُوًّا، ورفقًا وعطاءً.

وتحسّنت؛ ولكن دعونا من النهاية، فإن كلَّ من عليها فانٍ، والموت لا ينقلنا إلَّا للحياة، فالنهاية السعيدة ليست بالضرورة عمرًا أطولَ، فقصة الحياة في الكيف لا الكم، عندما نحيا فلا يهمّ كم حيينا، «فَاسْجُدْ وَاقْتَرِبْ»، وقد تسجد سبعين مرة وتبتعد، دمعة واحدة صادقة تقيك حرّ يوم مقداره ألف سنة.

الحُلْمُ يَتَجَسَّدُ مِنْ جَدِيدِ

تسلَّلت خيوط الشمس إلى وجهها، ففتحت عينيها ببطء، وبدأت تستعيد وعيها تدريجيًا، كان الحلم عميقًا، من هذا النوع الذي يستغرقك تمامًا، فلا تعرف أنك تحلم، قامت على مهل تلمس الأرض بخِفَة، وكأنها تتمسك بالحلم الجميل، فتحت ستائرها البيضاء الرقيقة، تطلعت إلى حديقتها الجميلة، تطلعت إلى الأسفل وابتسمت، واستكملت حلمها، صغيرتها الحلوة تقفز فوق العشب، وتقلد صوت القطة وهي تبدي دهشتها باحثة عنها: أين أنتِ أيتها

الهِرّة الصغيرة؟ أسمع صوتك ولا أراكِ، هل تختبئين مني؟

فتضحك صغيرتها، وتكمل اللعبة بسعادة، وهي تظن أنها نجحت في تمثيل دور القطة مع أمها، وتستعد لمفاجأتها: إنها أنا! فتضحك الأم مندهشة: أنت القطة، كيف أتقنت صوتها هكذا؟

ثم تردف: هل أنت جائعة يا قطتي؟ ما رأيك أن نفطر سويًا في الحديقة، ثم نبدأ العمل بها؟

أفاقت من حلمها، وخرجت بتثاقل إلى المطبخ لتعِدّ قهوتها، أمامها يوم حافل، حاولت أن تنسى الحلم، وتشغل عقلها بالمهامّ المنتظرة، حتى

أحست بلمسة حانية على شعرها، وقبلة: صباح الخير يا أمي.

صباح الخير يا حبيبتي، ما الذي أيقظك مبكرًا هكذا؟

لم أستطع النوم طويلًا.

حاولي أن تنامي ولو ساعتين قبل الذهاب إلى الصالون.

سأحاول.

ساد الصمت، فقطعته الأم مازحة: لي يومان أفكر، هل عليَّ أن أخبرك بوصية الأعرابية لابنتها في يوم زفافها، أم تُراكِ تعرفينها؟

ابتسمت الفتاة قائلة: أعرفها جيدًا، وأعدك أنني سأحاول ألا أنغِّص نومه، ولا أفرح أمامه وهو حزين.

ضحكت الأم وتابعت: حسنًا طمأنتني، ربما عليّ أن أعيد صياغة الوصية، فأوصيكِ يا ابنتي ألّا تستغرقي في هاتفك وهو يُحدّثك، ولا تفشي مشاكلك على السوشيال ميديا.

تبادلتا الضحكات، وقالت الابنة: هذا الإصدار الأخير من الوصية يبدو أكثر تشويقًا.

مضى اليوم بسلام، كان حفلًا جميلًا مفعمًا بالمحبة، وعندما أوصلت طفلتها الكبيرة إلى بيتها الجديد شعرت بفيض من الدموع يخترق قلبها؛ ولكنها برباطة جأشها المعهودة منعته من الوصول إلى عينيها، قبلتها

وتمنّت لها السعادة، وأوصت زوجها بها، ثم غادرت مسرعة.

تملّكها شعورٌ غريبٌ، وهي تدخل إلى البيت، بدا لها غريبًا جِدًّا بدون ابنتها، لم تستطع المرور بقرب غرفتها، وخافت أكثر من الدخول إلى النوم رغم تعبها الشديد، وكأنّ كلّ المشاعر والأفكار المخبّأة تنتظرها هناك.

دخلت إلى غرفة مكتبها، قررت أن تنجز بعض المهام الروتينية المؤجلة، حاولت أن تنهمك بعيدًا عن نفسها، حتى فوجئت بالبكاء يتفجر من قلبها، بكت كطفل صغير، لا تدري كم من الوقت بكت، ولكنها بكت كثيرًا، بكت حبًا واشتياقًا، بكت خوفًا ووحدة،

بكت عُمرًا رغم ما فيه من صعاب بدا لها الآن حُلمًا جميلًا بعيدًا.

وانتشلها من بكائها جرس الباب، تساءلت بقلق: من سيأتيني الآن؟

هرولت لتفتح، فإذا بمندوب يحمل باقة ورد رائعة: تفضلي، عُذرًا على الإزعاج، ولكن ابنتك طلبت أن نوصِّلَه لك في هذه الساعة.

شكرته، وأمسكت الباقة بيديها كانت تضم ورودها المفضلة: الزنبق والقرنفل والبنفسج، شعرت وكأن صغيرتها تحتضنها، وتربِتُ على قلبها، وابتسمت وهي تدرك كم أن قطتها الصغيرة أصبحت شابة ذكية ومراعية! لقد أرادت أن تأتيني

زهورها ورسالتها وأنا أبكي، علمت يقينًا أنني سأفعل.

فتحت الرسالة المرفقة مع الباقة:

شكرًا على كل زهرة غرستِها في قلبي يا أجمل زهرة في العالم، سأحمل في قلبي دومًا زهراتنا الجميلة، وعُمرًا عشناه سويًا معًا بأفراحه ومصاعبه، ومن يدري؟ ربما أحمل إلى حديقتك السعيدة قططًا صغيرة جميلة عن قريب.

على كلٍّ حال، نامي جيّدًا؛ لأنني سأتناول الغداء معك غدًا، وسأصدعك كالمعتاد بحكاياتي، أحبك.

ضمَّتِ الرسالة إلى قلبها، وخرجت إلى حديقتها، أضاءت أنوارها،

وابتسمت بفرح عندما تخيلت الحُلم يتجسَّد من جديد.

أرجوك اكسر تمثالي

«حلقاتك برجالاتك، حلقة يا نونو بوداناتك»

يفترُّ ثغرُ «ريم» عن ابتسامة خلَّابة، وهي تتابع طقوس حفلة «السبوع»، ورغم الضجيج الذي امتلأ به المكان، وحركات الأطفال الدائرية بالشموع؛ لكن خيالها كان يستمتع بمشهدٍ آخرَ مشابهٍ مع فارق وحيد أن تكون هي بطلته، أن تتوَّجَ هي أمًّا وتكون الحفلة لها ولوليدها، أفاقت من خيالاتها على أصوات ضحكات عالية:

(اسمع كلام أمك، وماتسمعش كلام أبوك) قالت الحاجة أم منى مبتهجة، فأجابتها صديقتها اللدود أم أحمد بصوتٍ مرتفع تكسوه الفرحة: (اسمع كلام جدتك أم أبوك، وما تسمعش كلام جدتك أم أمك).

تأمّلت «ريم» صديقتها «منى»، وهي تحمل وليدها، وتضحك من قلبها، إنها سعيدة حقًّا، ممتلئة بالنشوة والأمان.

أزاحت خصلات ذهبية عن جبينها الناصع، قامت تبارك لصديقة طفولتها، وزوجها على المولود متمنّية لهما دوام السعادة، وانصرفت مغادرة.

محظوظة هي منى، زوجٌ مُحِبّ شهمٌ حنون، طفلٌ جميلٌ، حياة مفعمة

بالمشاعر: «هنيئًا لكِ يا صديقتي الحبيبة» تمتمت «ريم»، وهي تنقل خطواتها باتِّجاه موقف الحافلات، واستغرقتها الأفكار من جديد، طوال حياتها كانت منى معها خطوة بخطوة، وكانت دائمًا ما تغبِطُها منى، وتصفها بالمحظوظة لما تتمتّع به «ريم» من جمال باهر أخّاذ، يفتح لها الأبواب، ويوقِع لها بالقبول أينما حلّت وارتحلت.

«لكنّ تعاستي كانت دومًا رفيقًا مخلصًا لجمالي» قالت لنفسها، وهي تنظر من شباك الحافلة.

وبدأت في استرجاع ذكرياتٍ مُرّة، فمن طفلة تذهب إلى المدرسة؛ ولكن ليس للعلم كزميلاتها، وإنما للتدرُّب

على الحفلات المدرسية التي كانت على رأسها دائمًا، بالطبع يختارونها هي لجميع الحفلات، ويقطفونها من وسط الدروس بلا أدنى خجل، وكيف يستغنون عنها وهي سِرُّ النجاح والتميّز؟! وهي كطفلة كانت تسعد بالخروج من «الحصة» ثقيلة الدم إلى فضاء المسرح تغني وترقص، شاعرة بالزهو لأنها هي، وهي دائمًا مَنْ لا تخطئها يدُ الاختيار، وتتصدَّر الكورال.

شعرت بغُصَّةٍ وهي تنظر للوجه الآخر للعملة، ففي البيت يشدِّد الأب والأم الخناق على إخوتها وأخواتها طوال العام الدراسي، أما هي فلا

يهتم أحدٌ بما تحرزه دراسيًا علا، أو سفل!

فهي «القمر الذي لا يُخاف عليه، ولا ينبغي أن يتعكر مزاجه» على مذهب والدها، بل إنها أمل الأسرة في الثراء، والحياة المريحة بعريس «ابن ناس» على مذهب أمها، لم يفكر أحدهم يومًا أنها ربَما تكون فاتنة العقل واللُّبِ، وأنَّ بداخلها روحًا وأن لها فكرًا خلَّاقًا يستحق كلَّ منهما التقدير، والإعجاب، والإنماء.

شعرت بالغضب والمهانة يسريان في جسدها، شعرت بحنق شديد على الجميع، والجميع بلا استثناء، واشتدَت مشاعر الاستياء، وهي تستعرض مراهقتها المتخمة بغيرة

الصويحبات وحسدهنّ، ومضايقة الذكران من العالمين، والخواء العاطفي الموجِع، خاصة من أمها التي كانت تولي شقيقاتها عناية، وتحضر جهازهنّ وتبدي القلق عليهن، وهي كالعادة مستثناة، فلا شأن لها هي بهذه الترهات، ولا داعي للقلق عليها أو الدعاء لها بالستر وابن الحلال، فهي التي لم تكد تتمَ الخامسة عشرة حتى تقدم لها الراغبون في الوصال، والساعون لاقتناء تمثال الجمال.

وعندما خطبت صديقتها «منى» لابن عمتها، ورأت بينهما حبًا جميلًا ومشاعرَ غضَّة تمنَّت من كلِّ قلبها أن تحظى بها خطبت هي أيضًا للشابَ الثريَ الذي طالما حلمت به الأسرة،

وتحققت أحلام أبويها بالعريس «اللقطة» الذي تسدّ سيارته السوداء الفارهة شارعهم، ويتحدث الجيران عن وسامته، وشياكته، وما يحمله على كتفه وفي جعبته ممَا لذَّ وطاب؛ لكنها لم تشعر قطُّ أنه يحبها، وإنما يشتهيها! يرمقها ويطيل النظر إليها، فلا ينفذ إلى روحها، ولا يخاطب عقلها، كم تمنّت أن تصرّخ برفضه، وأنها لا تحبه، ولا تتمنّى أن تقضِيَ عمرها معه؛ بل إنها تشعر بالمهانة إلى جواره، وهو ينظر إليها، وهو يحدّثها.

ولكن هيهات أن تفعل! كيف تحطم حلم أبويها؟ إنه الإنجاز العظيم الذي طالما أعدّاها له! كيف تقول لهما

إنها لا تريده، وإنها تتمنّى شابًا يحبّها كما يحبّ أحمد منى.

إنها تعلم ما يمكن أن تلقاه إذا عبّرت عن ذلك، كيف تقارن نفسها بمنى؟ كيف ينزل القمر إلى الأرض ليلطخ نفسه بطينها؟ تخيّلت أمها تصرخ قائلة: «يعني اللّي خدته القرعة تاخده أم الشعور؟!».

توقفت عن التفكير، واستسلمت يائسة، وتوقفت الحافلة هي الأخرى، نهضت وأخذت تنقل خطواتها إلى البيت، وأخرجها من حزنها القديم المتجدّد تذكُّر «النونو»، وحلم الأمومة السعيد، وصلت إلى البيت، فرأت السيارة الفارهة، تمنّت لو أنها لم تعذ إلى البيت، صعدت بخطًى

متثاقلةٍ، سلّمت عليه، جلست معه وحدهما.

«كيف كان السُبوع؟» سألها.

«جميل جِدًّا، والنونو زي القمر ما شاء الله».

لم يعقب ولو بكلمة واحدة، فقد كان منشغلًا عن الحديث بالنظر الطويل إليها، شعرت باستياء شديد.

«أتمنى أن يكون عندي طفل جميل مثل منى، إنه أروع إحساس في الوجود».

انتبه وارتسمت عليه علامات السخرية: «لا، لا يا حبيبتي، ابعدي عنك هذا التفكير الآن تمامًا»!

ردّتْ مفزوعة: «ماذا؟».

قال «أتريدين أن تفسدي الخصر المرمريَ، والنهد الرمّانِيَ، والقدَّ الميّاس؟».

شعرت بجفافٍ شديد في حلقها، ودوارٍ وقرف، قامت مسرعة إلى الداخل، أغلقت باب غرفتها، حسنًا، فهذه هي النهاية إذًا، تعذبت بتمثالي الذي أسرني منذ طفولتي، والآن سيحول هذا التمثال بيني، وبين أغلى متعة في الحياة، وسيخنق حنيني إلى الأمومة!

انهمرت دموعها بغزارة ومرارة، تمنّت في هذه اللحظة من كلِّ قلبها أن تكون قبيحة! نعم قبيحة، تجسَّد لها جمالها خائنًا يطعنها في ظهرها كلّما مضت في طريقها.

ليتني كنت فتاة عادية؛ بل إن الدمامة أفضل ممَّا أنا فيه! ليتني أنام، وأصحو لأجِدَني فتاةً عاديَّةً؛ بل أقلّ من العادِيّة! تخيّلت نفسها، وقد أصبحت مثل منى صديقتها، شعرت براحة ولذّة لهذا التفكير: «ستكون حياتي أفضل بالتأكيد»، قالت لنفسها.

اعتصرها الحزن عندما تخيّلت خطيبها الوقح وهو لا يريدها سوى جارية لإشباع شهوته، ولعله يبحث بعد ذلك عن امرأة أخرى تكون أمًّا لأولاده، وبهذا يحقق أبُوّته مع الحفاظ على تمثاله.

نظرت إلى المرآة، وأخذت تتخيَّل لو أنها لطّخت وجهها، ووضعت أنفًا ضخمًا من لعب الأطفال على أنفها، ثم

خرجت على ذلكم الوغد لترى الحسرة في عينيه!

أخذت تتعجب من النساء اللَّاتي ينفقنَ أموالهنَ، ويخضعن لجراحاتٍ تجميليَّةٍ عديدةٍ لإصلاح شكل الأنف، أو شفط الدهون!

سرت في جسدها قشعريرة تلتها أخرى، وتلاحقت أنفاسها، وسرعان ما علت البسمة وجهها، «جراحات تجميلية» لمعت الفكرة في رأسها، تابعت: «كيف لم تخطر ببالي هذه الفكرة، نعم سأجري جراحاتٍ تجميليةً، لأكون قبيحة»! ضحكت بطفولة.

وفي الصباح كانت قد باعت شبكتها كلها، وحملت في حقيبتها

مبلغًا كبيرًا من المال، ولم تضيِّع وقتا، فتوجَّهتْ إلى طبيبٍ مشهورٍ بإجراءِ العمليّات التجميلية المختلفة.

انتظرت دورها في الكشف وسط نظراتٍ نارِيّة من المحيطين، والبعض ظل يضحك بهستيرية!

قالت إحدى الحاضرات متهكِّمة: «هوَّا الدكتور بيعمل إعلانات حيّة ولّا إيه؟»

ردَّتْ أخرى: «لا ده عايز يعقدنا» واستدركت: «لا لا الدكتور عاوز يحمسنا نكمل المشوار، وندفع وإحنا مبسوطين».

جاء دورها في الكشف، دخلت إلى غرفة الطبيب الذي تسمَّر واقفًا في مكانه، للحظة ظنَّ أن القدر قد أرسل

له نسمة منعشة وسط هجير الصيف، وأن الجمال أحب أن يربت على كتفيه لينسِيَه ما يلاقيه يوميًا من عناء، أخذ يفكِّر سريعًا: ماذا يا ترى؟ لا أرى أيَّ شيءٍ، عينان تقطران عسلًا، وأهدابٌ تجعلك تتابع حركة الفتح والإغلاق بلا ملل، أنف كالسيف لا يفلح أمهر الجراحين في الوصول إلى جماله، بشرة بضة ناعمة مُشربة بحمرة طبيعية، وقوام فارع ممشوق كلّ ما فيه جميل.

«هل اقتحمت فينوس عيادتي لتتهكم عليَّ؟» قال الطبيب.

ابتسمت ريم قائلة: «بل إنني في أمسّ الحاجة إلى مساعدتك».

قال الطبيب: «وأنا أتحرّق شوقًا لمعرفة التفاصيل!».

قالت: «أريد أن أجرِيَ عدّة تعديلاتٍ في وجهي وجسدي».

قاطعها متعجّبًا: «عِدّة تعديلات؟ أنا لا أرى شيئًا يحتاج إلى تعديل».

قالت بصرامة: «لكنني أرى، أريد تكبير حجم أنفي، وتغيير شكل أسناني مثلًا أحدث بعض الكسور بها، وزرع بعض البثور في وجنتَيّ»!

فغر الطبيب فاه مشدوهًا؛ لكنّ ريمَ لم ترحمه وتابعت: «بالنسبة للجسم أريد حقن الدهون في أماكن شتّى، وسوف أساعدك بالطبع بالتهام مأكولات عديدة، ومفتحات للشهية للوصول إلى الوزن المئويّ الذي أريد!

أو ربّما بعد المائة ببضعة كيلوجرامات».

ساد الصمت لحظاتٍ، ثم قال الطبيب بغضب: «كيف تجرؤين على الاستهزاء بي وتضبيع وقتي؟! أنا وقتي من ذهب، من فضلك انصرفي فدعابتك ثقيلة!».

قالت «ريم» وقد ملأها الغضب: «ومَنْ قال إنّ وقتي بلا ثمن، ومن قال إنّي أهزأ، أنا عنيت ما أقول، وسأدفع لك ما تشاء»!

قال الطبيب: «أنا جرّاح تجميل، ولست جرّاح تشويه».

ردّت: «أرجوك يا دكتور، أنا أحتاج إلى إحداث هذا التغيير، أحتاج إليه

أكثر ممن يأتينك باحثات عن الجمال، لديَّ أسبابي، أرجوك تفهّم موقفي».

قال: «كيف أتفهّم موقفك؟ وأيّ فهم عساه يفسر ذلك الجنون؟! لا بُدّ أنك تعانين مرضًا نفسِيًّا، أو عقلِيًّا يا آنستي»!

قالت: «لا أبدًا، أنا تعذَبت كثيرًا بجمالي! كان وبالًا عليّ طوال حياتي، صدقني إنك سوف تقوم بجراحة تجميل؛ ولكن لحياتي، ساعدني كي أبرز جمالي الداخلي، فك أسري من هذا التمثال الذي حبس مواهبي، وكرامتي، ويحرمني أمومتي ويدنيني عن مصافّ البشر».

قال الطبيب: «مهما كانت الأسباب والملابسات، فإن ما تريدينه هو

جريمة في حق نفسك، ونكرانٌ لنعمة الله التي كان ينبغي عليك شكرها، انظري حولك لتَرَيْ كم من النساء يتمنَّيْنَ قطرةً من جمالك، ولا ينبِّئُك مثلُ خبير».

ردَّت «ريم»: «معاذ الله أن أجحدَ نعمته، أنا لا أرفض نعمة الخالق؛ لكنني أرفض بشرية تريد أن تسلِبَنِي كلّ نعم الله الأخرى وهي عظيمة، وأذكرك أن الله تعالى لا ينظر إلى صورنا، وأجسامنا؛ ولكن ينظر إلى قلوبنا وأعمالنا؛ لكن البشر بلغوا في انحطاطهم أنه لم يعد لهم همٌّ إلّا تلك الصور الذابلة، كيف ينكرون هم نعمة الله أن نفخ الروح في الطين،

ويريدون أن يَرَوْني تمثالًا بلا روح، ولا وجدان».

سكتت قليلًا ثمَ تابعت: «إن الهوس بالجمال هو الذي أتى بي إليك، كما أتى بالنساء الأخريات، وكلٌّ منّا يسعى للغاية نفسها، التقدير والأمان والحب، إنهن يردْنَ تحسين الظاهر ليُرى جمال باطنهن، أما أنا فجمالي التمثالي منع الآخرين من رؤية روحي واحترامي كامرأةٍ يحافَظُ عليها، أفقدني دوري في الحياة ككائنٍ خلقه الله؛ ليبعثَ في الأرض الخير، ويملأها حنانًا وحبًا، يمنعني أن أكونَ زوجةً لرجلٍ يحبُّني حقًّا، وأمًّا أفتخر بالحمل والولادة والرضاعة والسهر، إنه قد منعني من

طعم النجاح في أمور كثيرة، ولم يمنحني إلَّا زَهْوًا، وغرورًا، حسدًا وحقدًا، طمعًا وشهوة، وليته يبقى فإن عمره قصير حتى إذا ما فارقه الشباب لم يعد له معنًى، ولا يرومُهُ مُبْتَغٍ».

فكر الطبيب لحظاتٍ في كلماتها، ثم قال: «مهما يكن من أمر، فنصيحتي لك أن تحاولي إصلاح حياتك، لا أن تهدري ما لديك، أنت بهذا التفكير الجنوني ترمين أموالًا طائلة، لو تعرفين كم من المال قد تدفعه الكثيرات للوصول إلى بعض حسنك!».

سألته: «إذًا، أنت ترفض مساعدتي؟».

أجاب بحسم: «أجل، لا أستطيع أن أرتكب هذه الجريمة، وأن أشوِّهَ تاريخي بيدي، لن يسامحَنِي التاريخ أبدًا».

تنقَّلت «ريم» بين عيادات الأطباء، والكلُّ يرفض مستهجنًا، أو متعجِّبًا، أو هازِئًا، ضنَّ الرجال جميعًا بحسنها!

ظلت تمشي في شوارع القاهرة، وهي تشعر بتبدُّد أملها الذي لاح لها فجأة، تخنقها إعلانات مستحضرات التجميل في كلِّ مكانٍ، وصور المطربات والممثلات اللَّاتي فُتِنَ بهنَّ الناس رجالًا ونساءً، وخلقوا ثقافة جديدة مستوردة تقدس الصورة.

ثم جاءتها فكرة، لماذا لا تلجأ إلى طبيبة امرأة؟ ربّما تفهمها وتشعر

بمعاناتها، وكانت حقًّا فكرة صائبة، فقد وجدت غايتها عند جرّاحة تجميل تفهّمت موقفها وساعدتها على بغيتها، وفي هذه الأثناء لم تدَّخر «ريم» وُسعًا في التهام الأطعمة المخصصة لزيادة الوزن، ومرّت أسابيع، وقد كسرت التمثال، وأصبحت إنسانة أخرى، عادية الشكل ليس فيها ما يلفت النظر أو يبهر العين، لم يعرفها أبواها ولا صديقاتها، وتحسّر الكثير عليها، وولّى خطيبها مدبرًا، ولم يعقّبْ.

شعرت لأول مرة بالحرّيّة، وقررت زيارة صديقتها منى، كانت الحافلة مزدحمة اضطرّت للوقوف، كان هناك شابّان جالسان، والثالث واقفٌ إلى

جوارهما، قال ذلك الأخير لصاحبه: «قم حتى تجلس الآنسة»، شعرت بسعادة غامرة فلكم اعتادت على أن تسمع: «قوم للقمر، اقعد يا جميل»، فقد كانوا يقومون لجمالها ورغبة في وصالها والقرب منها، أنوثة تعسة؛ لكنها اليوم شعرت بأنوثة محترمة وامتلأت أمانًا.

خارجُ مملكتي يبحثُ عنّي

كانت تعلم أنه يبحث عن زوجة أخرى، تأتيها أخبارُ سعيِهِ، ومحاولاتِهِ من كل مكان، تعرف ذلك في وجوه مَنْ يخفون عليها قبل من يخبرونها.

كانت قد تخطّت بالفعل مشاعر الصدمة منذ فترة، كابدت الضيق والحيرة، والشَّكَ في النفس، وتجاوزت القلق والحنق، ووصلت بعد طول مجاهدة إلى التسليم والصبر، والانشغال بحياتها، وكلّ ما فيها من خير عمّا يُرْبكها، ويقلب رأسها.

هل هي بلا كرامة كما عنّفتها أختها؟ وهل كان عليها أن تقلبَ

حياته جحيمًا، وتهدده بكلٍّ عزيزٍ، وغالٍ حتى يرتدعَ عن فكرة الزواج عليها؟ إنها لا ترى الأمر كذلك، ليس لأنها بلا قلب مثلًا كما ألمحت إحدى الصاحبات في ثنايا كلامها الجارح، ولا لأنها باردة المشاعر؛ ولكن لأنها تعرف ما تريد: «بيت هادئ وأولاد مستقرون»، كانت من ذلك الطراز من النساء اللَّاتي يحببنَ بيوتهنَّ، بتفاصيلها الصغيرة، وإحساسهن بمتعة إدارة الحياة اليومية بامتياز وأناقة، كانت تحبُّ أولادها كثيرًا، وتحبُّ هذا البناء الذي أخذ من ساعاتِ عمرها، حبًا واهتمامًا وشغفًا.

كانت تعرف نفسها منذ نعومة أظافرها، هادئة تبدع في الاستقرار،

لم تعتبر نفسها يومًا ضعيفة، إذ كانت تستمدُّ من ربها القوة، ربَما لم تكن كثيرة النوافل؛ ولكن صلواتها الخمس كانت أهمَ شيءٍ في حياتها، حيث تستلّ روحها، وقلبها، وعقلها من كل ضجيج الدنيا لتقفَ بين يَدَيْ ربِّها، وهي تعتبر أن الصلاة بالتحديد هي ما جعلتها في سلام رغم كلّ ما فعله زوجها.

وصل إلى مسامعها خبر تلك العروس الجديدة المعروضة على زوجها، تحدثن أمامها ليُسمعنها متظاهرات بالإخفاء: «إنها جميلة وصغيرة وذات حسب ونسب»، امتلكت زمام قلبها، وجمّدت دمعة في عينها، وقبل أن تعود إلى مملكتها

الصغيرة، استوقفتها أختها قائلة بحُنُوّ: لا تحزني يا أختي، فالله معك، ونحن كلنا بجوارك.

شكرت أختها، وغادرت إلى البيت، وشيء في قلبها يخبرها بأن هذه المرة الأمر يختلف، لم تجرؤ أختها على أن تبثّها ما عَلِمَته من أن العروس الجديد المقترحة كانت تشترط طلاقها.

ما أنْ دخل زوجها البيت، ورآها حتى عرفت في وجهه الغدر، افتعل مشاجرة فاحتوتها، ومشاجرة أخرى فتجاهلت، وبدأ يفرغ صراخه فوق رؤوس الأبناء، فأمرتهم بالمغادرة إلى غرفهم في هدوء، فبدأ يصبُّ الشتائم والإهانات فوق رأسها.

وقفت أمامه متماسكة، وتحدَثَ بلهجة هادئة؛ لكن في غاية القوة: ماذا تريد؟

قال: يا بنت الناس، لم تعدِ الحياةُ بيننا صالحةً.

كررت سؤالها: ماذا تريد؟

تململ قليلًا، ثم قال: كلٌّ مِنَا يذهب لحال سبيله.

قالت: وماذا عن الأولاد؟

أجاب: أولادك معك، وسيصلكم ما يكفيكم وزيادة.

قالت برباطة جأش أذهلته: سأتصل بإخوتي للاتفاق على هذه الأمور الآن.

لم يتوقع ردّ فعلها، فحاول أن يفتحَ معها الحديث: ما بك؟ لِمَ تتصرّفين هكذا؟!

نظرت إليه طويلًا، وفي داخلها تهكمت قائلة: هل أفسدت عليك متعة رؤيتي منهارة، أم أنك كنت منتظرًا أن أهبطَ تحت قدميك أقبلهما أن تمسِكَني، ما لا تدركه أنني بين يَدَيْ رَبٍّ أستخيره، وأتوكّل عليه، وأنني صبرت على كلِّ ما لقيتُ من توتُّرٍ وإهانة ابتغاء وجهه، فهل أحزن إذا ما نفذت إرادته فيَّ؟!

أجابته بكلمات: إخوتي سوف يكونون هنا خلال دقائق بإذن الله.

وفي حضور إخوتها كانت حريصة على عدم خروج الكلام إلى أيّة

منعطفات، أو مشاحنات، وسط ذهولهم جميعًا من طريقتها، فقد كان الجميع يظن أن صبرها ضعفٌ، وخوفٌ.

لم يكن بيد زوجها إلّا أن يوفي بما قال، وأكد هذا في تعهداتٍ شفوية وكتابية، سيترك لها الأولاد، وسيضمن حقوقها ونفقاتهم.

قالت: أستميحكم جميعًا عذرًا، فإني أريد أن أبيت هذه الليلة وحدي مع أولادي، سأتهيَّأ لحياتي المقبلة.

نظرت إلى زوجها قائلة: وأنت أيضًا، لا داعيَ لأن تؤجِّلَ خططك، أرجوك أن تبدأ فراقك لنا من الليلة.

خرج الجميع، وغمرها شعورٌ عجيبٌ بالهدوء، كمن كان ينتظر

وقوع مصيبة، دمر الانتظار أعصابه، فلمّا وقعت لم يشعر بأيّ دمار!

لم يكن الطريق مفروشًا بالورود؛ ولكنه لم يكن شاقًّا كذلك، لم تكن نادمة، فهي لسنواتٍ تحاول الإصلاح، وهو لا يرى إلّا حتمِيّة الفراق، يلمِّح إليه، ويجعلها في مهبّ الريح مع كلّ جديدة تلوح في الأفق.

علمت بعد شهور أن قصته مع من اشترطت طلاقها قد انتهت، لم يدخل بها، سمعت من البعض أنها كانت تتعالى عليه، وتخاطبه بشكلٍ مُهين أمام أهلها وأهله، كانت مغرورة جِدًّا، ولم يُطِقْ هو احتقارها له، وطلباتها الباهظة.

حاول أن يرجعها، فرفضت، وحذرت كلَّ مَنْ يحاول فتح هذا الأمر معها، كان يحاول إرجاعها، وهو يكمل طريق البحث عن عروسه الجديدة التي لن يناقشها إذا ما طلبت خراب بيتهما مُجَدّدًا.

رفضت، ففي بُعْدِهِ عرفت هدوءًا غير مسبوق، كانت ترعى كلَّ تفاصيل بيتها وحياتها الصغيرة كما اعتادت، لم يؤثِّرْ غيابُهُ على أناقتها، وتدبيرها.

بعد عامين علمت أنه أكثر فيهما من سفراته لدول مجاورة بحثًا عن ضالته المنشودة، لم تكن تعبأ بأخباره طويلًا، كانت مشغولة بأنشطة دينية واجتماعية وعلمية، كانت مشغولة مع أبنائها الّذين لم يفكر في رؤيتهم إلَا 3

مرات خلال أكثر من عشرين شهرًا! لكن قصته الأخيرة كان من الصعب إخفاؤها، فقد كان يسعى للوصول لامرأةٍ حدَّثته إحداهُنّ عن جمالها، وسيرتها الحسنة، ومهاراتها، تعلق جِدًّا بها؛ لكنها كانت تأبى حتى أن تراه، كانت ترفض فكرة الزواج مُجَدَدًا بعد طلاقها. وكلما حدثته عنها الوسيطة، وكلما رفضت، زاد تعلُّقه بها.

وتحت إلحاح الوسيطة اضطرّت المرأة للموافقة فقط على رؤيته، كان مستعِدًّا لفعل أيِّ شيءٍ كي تقبله، إنها ضالّته المنشودة التي ضحّى من أجل الوصول إليها، وطال بحثه، أُعجب بها جِدًّا قبل أن يراها، مواصفات جمالها، طبائعها، شخصيتها، وإباؤها، اعتقد

حقًّا أنها امرأة أحلامه، وعندما التقى بها أخيرًا، كانت هي، زوجته الأولى بشحمها، ولحمها.

دارت الأرض من حوله، هل كنت أبحث عنها وهي بين يَدَيّ؟ هل كنت أعمى عنها لقربها؟ أما هي، فابتسمت للوسيطة، ثم ولّت، ولم تعقب.

تعازينا المولود أنثى

لم يكن يوم ولادتها تاريخًا سعيدًا في حياة أسرتها، وعلى الرغم من أنها وُلِدَتْ سالمة معافاة، وكذلك كانت حال أمها بعد ولادة يسيرة، فقد استقبلها أبوها بتجهُّم، وأمها ببكاءٍ حارّ! وكانت العبارة الأولى التي وصلت مسامعها في هذه الدنيا من المحيطين بها هي: إنّا لله وإنا إليه راجعون! هكذا إذًا هي مصيبة، هذه هي أول هُوِيَّة تلقتها عن نفسها، فلم يشفع لها لديهم بهاءُ طلّتها، بذلك الشعر الأسود الفاحم الغزير المنحدر بنعومة على وجه أبيض مملوح،

وعينين واسعتين بهما حَوَرٌ أخّاذ، لم يشفع الجمال، ولا الصحة إذ كان المولود «أنثى».

كانت مروة الابنة الرابعة بين أخواتها، بعد أن قرر أبواها القيام بمحاولة أخرى وأخيرة لتحقيق حلمهما بإنجاب ولد ذكر، لم تكن أجهزة الأشعة التي تكشف عن جنس المولود قد انتشرت آنذاك؛ لذا فقد أمضيا فترة الحمل في ترقُّبٍ، وأمل لم يسمحا لنفسيهما بتخيُّل أنَّ المولود القادم أنثى أيضًا، كانا يطردان الفكرة إذا وردت من باب أن يحسنا الظنَّ، ويحسنا الفأل!

الشهور التي تلتِ الولادةَ كانت عصيبة، فقد غرقت الأم في اكتئاب،

وبدأت تنظر إلى أسرتها نظرة سوداوية، ورغم ما وهبها الله من بناتٍ ذكيّاتٍ جميلاتٍ لطيفاتِ المعشر، فقد كانت تقلق على مستقبلهن، ومستقبلها، ومستقبل زوجها، في غيابِ الأخ الذكر الذي يوفِّر الحماية، والواجهة الاجتماعية المطلوبة، لم تكن قاسية، أو مختلّة الأمومة؛ ولكنها كانت ابنة ثقافتها، وردّ فعل لتصوراتِ مَنْ حولها، فبعد إنجاب الابنة الأولى تلقّتِ التبريكات المصحوبةِ بالدعاء أن يكون المولود الثاني ذكرًا، وبعد إنجاب البنت الثانية تصاعد قلق القريبات، وتململ الزوج، وأصبحت الحاجة ملحة لإنجاب ذكر يطمئن الجميع على مستقبل الأسرة، ويعيد

لها شأنها، فلم تمهل نفسها لرعاية الصغيرتين، أو الحصول على الراحة المطلوبة، فسارعت إلى الحمل مجددًا، واختار الله لها هبة الإناث مجددًا، فبكت وحزنت، وتلقَّتِ التعازيَ الممزوجةَ بالشماتة! أظهر الوالدن بمرور الوقت تقبُّلًا لقدر الله؛ ولكن رغبتهما الدفينة وإحساسهما العميق بالنقص ألقى بظلالٍ كثيفةٍ على تربيتهما لآخرِ العنقود، كانا يبديان سعادة كبيرة بتصرفاتها الخشنة، ولا يأبهان بميولها الأنثوية، فإذا رغبت في شراء لعبة سيارة، أو بندقية لبَّيا ذلك بسرور، أما إذا اختارت دمية، فالجواب جاهز: «لدى أخواتك الكثير منها، خذي إحداها»!

أدركت بذكائها دون شرح، ولا تصريح أن مفتاح اهتمام والديها، وثناءهما في أن تتصرف كالصبيان، أن تشعر كالصبيان، أن تتشبَّه بهم، أمَّا إذا استجابت لميولها الأنثوِيّة، فلن تجدَ إلَّا المللَ والإهمالَ، والمنافسة الشرسة من ثلاث بنات يكبرنها، يجعلن منها كأنثى مجرّد تكرارٍ في عيون أبوين قتلت هي حلمهما بصبيّ!

كبُرَت مروة وهي تقمع الطبيعة الأنثوِيّة في نفسها، وتخفي معالمها، وتخجل من مظاهرها، حتى أن أبويها اختارا لها اسمًا ذكوريًا يطلقانه عليها «للتدليل»! وقد أحبّت هذا الاسم كثيرًا، فقد كان مقرونًا بالحبّ والخصوصِيّة، والمكانة.

تعوّدت أن تشعر بالسعادة كصبيٍّ، وأن تسخرَ من سلوكيّات الفتيات، قصّة شعرها، ملابسها، صوتها، طريقة لعبها، كلها كانت صبيانِيّةً خالصةً؛ ولكنها اصطدمت مع انتهاء الطفولة، وبدايات المراهقة بما لم يعدْ في وُسعها إنكاره، أو التحايل عليه، فروق جسدية قاطعة، وأنوثة طاغية فرضت نفسها عليها، فلم تجدْ إلّا الخجل والانطواءَ الشديدَ في صراعٍ مع نفسها حول هُوِيَّتِها الجنسية، لم يعدْ في وُسع أبوين أفسدا كلّ شيءٍ، وعاندا الفطرة ليمتعا نفسيهما قليلًا أن يفعلا شيئًا لفتاة تتعذّب، والأسوأ أنهما لم يكونا بعدُ راغبين، ولا مستعدّيْن لتقبُّل الحقيقة، ما زالا

مُصِرّيْن على أن تكبِتَ أنوثتها بكلّ وسيلة، فهي من ستحمي أخواتها، وهي من يوجد الاختلاف المحبوب داخل أسرتها! كيف لفتاة لم يُسمحْ لها يومًا أن تتجمّل كالبنات، أو أن تطيلَ شعرها وتفتخرَ به، أو أن ترتديَ الفساتين الورديّة الجميلة، أو أن تفرحَ بثناءٍ استحقّته على جمال وعذوبة، كيف يمكن لها أن تتعامل مع حقيقة كونها أنثى، مع ميلها للجنس للآخر، وهي التي عاشت طفولتها تتشبّه بهم، وتتقمّص مشاعرهم وأساليبهم، وهي التي لم يفكر بها والداها، ولا مَنْ حولها يومًا كعروس محتملة، أو أمٍّ مستقبلية؟! بنت وسط ثلاث بنات؛ ولكنها حقًّا لا تعرف كيف تشعر

البنات، كيف يفكرن، كيف يستمتعن بوقتهن ويرسمن أهدافهن، وهي في الوقت نفسه لم تختبر حقيقة الذكورة، ولم يعدْ لها مكانٌ بقوامها الملفوف وصوتها الناعم للعب والمصاحبة بين أصدقاء طفولتها الصبيان، الذين صاروا فتيانًا.

هربت مروة إلى المساحة المشتركة بين الجنسين، فأكبَّتْ على المذاكرة، تتلهَّى بها عن ماضيها ومستقبلها، وعشرات الأسئلة القلقة، والصراعات الدائرة في قلبها وجسدها وعقلها، وقد اتَّضحت لها معالم الجريمة التي ارتُكِبَتْ في حقها، وتمنَّت لو أنهم ظلوا يعتبرونها مصيبة يتعايشون معها على مضض، بدلًا من

إنكار الحقيقة وتزييفها، فرغمًا عنها وعنهم، كان المولود أنثى.

زوج نِكَدِي جِدًّا

تبدأ مأساة صديقتي من والدة زوجها، وذلك على الرغم من كونها سيِّدةً طيبةً تعاملها أفضل معاملة، ولا تؤذيها من قريب أو بعيد؛ ولكنها ربَّتِ ابنها بطريقة تؤذي كلّ مَنْ يقترب منه، أو يتداخل معه، وبالأخصّ زوجته.

لقد ربَّتْه على الأخلاق، وعوّدته الصلاة منذ صغره، فخرج شابًا مؤدَبًا لا يفوته فرضٌ، كلُّ هذا جميلٌ ورائعٌ؛ ولكنها غرست فيه شعورًا أحمقَ بالكِبْرِ والاستعلاء، فمنذ صرختته الأولى في هذه الدنيا، والتي تبعتها

زغرودات من حولها في تلك القرية النائية، وصيحاتهنّ المبشرة: «ولد، ولد، ربنا كرمك بولد»، منذ ذلك اليوم وهي تتعامل معه على أنه الجوهرة الثمينة، ومفتاح سِرّ التاريخ، وكأنه أوّلُ صَبِيٍّ في تاريخ البشرية، ومن لم تلدْ مثله النساءُ!

وتلوم صديقتي نفسها على أنها لم تدرك فساد الحال رغم الشواهد، فعندما أتوا لخطبتها، وجلست مع حماتها، أخبرتها وأخبرت الجميع بقصتها، فقد رزقها الله بعد زواجها ببنتٍ تِلْوَ الأخرى، وعندما أنجبتِ البنت الرابعة استبدّ بها اليأس؛ بل على حدّ وصفها «أكل الناس وجهها»، وهو تعبيرٌ يحمل في طيّاتِهِ الخِزْيَ،

والعارَ الموروثَ عن الجاهِلِيَة الجهلاء، ولم يكن أمامها من مفرٍّ إلَّا أن تحاولَ مجدَدًا لتنجبَ صبيًا ذكرًا يحفظ ماء وجهها المُراق، وقد رزقها الله بما تمنّت، فدللت وأسرفت في الدلال، وربَّت بناتِها على أن هدفهنّ الأسمى في هذه الحياة أن يخدمنَ أخاهنّ الأصغرَ المبجّلَ، ولا يفترنَ عن رعايته وإسعاده، فتعوَّدَ أنّ مَنْ حوله من النساء هنّ دومًا رهن إشارته، ومحكوماتٌ بأمره، ومتحمّلاتٌ لتقلّبات مزاجه، ومسئولاتٌ عن ترفيهه وإبهاجه، لا يمكن أن يغضبنَ منه، أو يفكّرنَ في خصامه، فهو ملك الخصام، ومتعهد الغضب والانفعال! وتتعاظم أزمة صديقتي لكونها نشأت

في بيئة مختلفة، وفي ظل ثقافة مغايرة تمامًا، لا تعتبر الذكورة بحدّ ذاتها مفخرة، فقد ربّتها أمها على أن تحِبّ أخاها وتعاونه، كما ربَّته هو أيضًا على أن يحبها ويرعاها ويحترمها، صديقتي التي تزوّجت عن قصة حبٍّ عصرية جدًّا، تمنت في ليالٍ سوداء كثيرة لو أنها لم تستسلم لعاطفة رعناء، ولو أنها دققت في طبائع زوجها، فطبعه الرئيسي كان «النَّكَد»، إنه يحبّه ويعشقه إلى حَدّ التتيُّم! ويجد لذة متناهية في أن يصبّ إحباطَهُ المصطنع على مَنْ حوله ليبدؤوا في هنهنته كالطفل الصغير، واقتراح أفكار عليه ليرفضها، فيتمادى في تعذيبهم، ونقل حالة

الإحباط إليهم، ثم إذا به فجأة يبتهج، ويغرقهم مزاحًا وانبساطًا!

كانت تعتقد أن زوجها وأبا طفليها مريض نفسيًّا، ومرضه عضال ميئوسٌ منه، فهو لم يعرف يومًا معنى عتاب النفس، أو مراجعتها ليفكِّرَ في تغيير سلوكه، وقد أفسده الدلال والغرور، فتتقلب عليه نفسه دائمًا، ولا يطيق رؤية من حوله وبالأخص زوجته سعيدة، أو مشغولة بشيءٍ بعيدًا عنه!

كانت نصيحتي لها أن تغيِّرَ طريقتها معه، فقد كانت تحاول إرضاءه، وتشعره بخوفها وحذرها من تقلباته، وتضيق عليها الأرض من جرعات نكده المتتالية، ورغم مشاحناتهما الكثيرة، وكلامها القويّ

وصراخها في بعض الأحيان، إلّا أنه كان يجد فيها امرأة ضعيفة، امرأة تدور في فلكه، ويستطيع اللعب بأعصابها، وتبديل مشاعرها في دقائق معدودة، باختلاق مشكلة، أو إبداء العبوس والصمت، كان يراها ضعيفة تمامًا كوالدته، وأخواته وإن تغيَّرت صورة الضعف وطريقته، بينما هو يتوق حقًّا إلى المرأة القوية، تلك التي لا تنتظره دومًا ليبدِّلَ سواد حياتها ضياءً، تلك التي تعرف طريقها، وتمضي إلى أهدافها وأعمالها، وتعرف كيف تتَّخذ قراراتها، ولا يتغيَّر مزاجها تبعًا لأهواء مَنْ حولها.

كان يتمنَّى أن يرى نموذجًا نسائِيًا مغايرًا، امرأة تعرف كيف توقفه،

وتمنعه عن أذى نفسه وأذى الآخرين بهذا النكد والتقلب والدلال البغيض، بألّا تشعره أنها ضائعة في غيابه، فارغة بدونه، أو مهتمّة لقسوته المفاجئة، وبالطبع ألّا تنساق مع إشعاره لها بالذنب الذي يبرع فيه.

وعلى عكس ما نصحتها به الكثيرات، فقد كان زوجها بالذات لا يحتاج إلى من تكمل معه مسيرة الدلال، والاستضعاف التي تشبَّعَ منها، وسَئِمها من داخله، التي يعرف منبعها الرئيسي وهي والدته، ولا يريدها من زوجته، كان هذا الزوج المدلَّل بحاجةٍ إلى امرأة تشعره برجولته وليس بطفولته، تشاركه ويشاركها الحياة باتِّساعها، كان بحاجةٍ إلى أن يحترمَ

امرأةً، ويخاف على مشاعرها، ويحذر
هو أحيانًا تقلبها.

لَيْلَةٌ رُومانْسِيَّةٌ

كلَّما تذكَّرت تلك الليلة شعرت بمزيج من الحزن واليأس، والغيظ يجتاح قلبها، وبخاصة عندما تستحضر تعبها الجميل، وانتظارها طوال أسبوع كامل أمضته في تحضيرٍ متقَنٍ، كانت قد أعدّت كلَّ شيءٍ بعد أن بحثت على مواقع الإنترنت ومنتدياته عن كيفية عمل ليلة رومانسِيّة زوجِيّة، وجدت لياليَ بكلّ الألوان: أبيض وأحمر وأسود، حتى الفوسفوريَ المُشِعَ كان له مكان، تختار منها الزوجة ما تشاء، أفكار لا نهائية، ونصائح وتجارب صادقة، أو

مدعاة لتأثير هذه الليالي المبتكرة على الحياة الزوجية، وانبهار الأزواج اللّا محدود بها.

كانت في أمسّ الحاجةِ إلى تجديد حياتها الزوجية، وكسر روتينها الخانق، وإضفاء لمسات المودّة، والحب بينها وبين زوجها، بعد أن تحوّلا إلى ما يشبه الآلتين يؤدّيان مهامً، ويتبادلان حقوقًا في صمتٍ عاطفيٍّ مزعجٍ.

دخل الزوج ليلتها، فوجد حشدًا من المفاجآت بانتظاره، وبعد أن انهال عليه سيل البالونات، وبدأ يخطو فوق أوراق الورد المجفَّف وجد لوحاتٍ إرشاديةً على الحائط توجُهُهُ إلى مكان المفاجأة الكبرى، زحفت

الابتسامة إلى شفتيه، وشعر ببعض الإثارة والاستغراب، وعندما وصل إلى غرفة النوم وجد أمامه علبة كبيرة عليها ورقٌ ملونٌ، فتح العلبة، فوجد بداخلها زوجته، إنها هي المفاجأة الكبرى! قبّل يدها ضاحكًا، وأبدى سعادةً، ودهشةً بهذه الطريقة الجديدة للاستقبال، وأثنى على هيئة زوجته، وأحسَّ بأنَّ مجهودًا كبيرًا بُذِلَ في كلِّ شيءٍ، وبخاصّةٍ في هذه التفاصيل الصغيرة من حوله، شموع عطرية، عشاء فاخر، ظلال عيون زوجته الذي ضم 4 ألوانٍ مدموجةٍ جيّدًا.

بدت الأمور على ما يرام، نجحت المفاجأة، واستقبلها الزوج بقبولٍ

حسنٍ، بعباراتِ الثناء وكلمات الإعجاب والاستحسان؛ ولكن الأمور انقلبت على مائدة العشاء، فبينما كانا يتناولان طعامهما في هذه الأجواء الحالمة، هجم على الزوجة إحباطٌ لم تستطع دفعه، لم يكن هذا هو ما انتظرته، كانت تنتظر ردَّ فعلٍ رومانسيٍّ! هذا ما فاجأت به زوجها كتَتِمّة لمفاجآت الليلةُ.

قالت بنبرةٍ قطعها الإحباط: هذا هو كلّ شيء؟

وضع الملعقة على الطاولة، وقد شعر باقتراب العاصفة، وسألها مصطنعًا الهدوء: كلُّ شيء بالنسبة إلى ماذا؟

قالت دون أن تنظرَ إليه: هذا هو كلّ ما لديك كردٍّ على مفاجأتي لك؟!

حاول أن يبحث في رأسه عن أجوبة سريعة، فهو يعلم أن طول الصمت يضايقها، وقال: لا يا حبيبتي، سنقضي ليلة جميلة.

وضعت كفَّيها على وجهها، وقالت بنبرةٍ حادَةٍ مجروحة، وكأنه طعنها بلا رحمة: لا، ليس هذا ما انتظرته.

سألها: وماذا انتظرتِ إذًا؟

قالت: انتظرت حبًا، لهفة، اشتياقًا، إعجابًا، انبهارًا.

قال محاولًا استجماع هدوئه: واللهِ إنني لأحملُ كلَّ هذه المشاعر، والمفاجأة أبهرتني، وزينتك فتنتني،

وأعتذر إن كنت قد فشلت في إيصال مشاعري.

قامت بخطى متعثِّرةٍ، وهي تردِّد: عادي، عادي هذا هو ما اعتدتُ عليه، وبدأت في تبديل ملابسها لارتداء ملابس البيت المعتادة! وهنا لم يستطع الزوج أن يقاوم غضبه فقام ثائرًا، وقد دفع أدواتِ الطعام على الأرض بقوة، وقال: هل يُعقل أنكِ بذلتِ كلَّ هذا الجهد حتى تشعريني بالذنب، ليتكِ تضعين لي «كتالوجًا» وقائمة بردود الفعل المنتظرة؛ حتى لا أخيِّبَ آمالَكِ فيما بعد، ما دامت طبيعتي تحبِطُكِ!

قالت بغيظ: نعم، استمرَّ في الصراخ، فأنا أستحقُّ غضبك، ومقتك

نتيجة فعلتي الدنيئة، ومحاولتي إسعادك!

قال وقد ازداد صراخُهُ: كان عليَّ أن أموت من الفرحة، فتصبحين أرملةَ الليلة الوردية، أو أن أفقدَ عقلي لمفاجأتك! أهذه هي ردود الفعل التي كانت ستسعدك؟

قالت بحنق شديد: لست مجنونة كما تحاول أن تصفني؛ ولكنني امرأة تاقت إلى نظرة إعجاب فقدتها طوال حياتها الزوجية، فبحثت عن طريقة ما لتحصلَ عليها، أنا زوجة ملَت من حياةٍ جوفاءَ خاليةٍ من المشاعر، أنا قارورة رقيقة اشتاقت إلى يَدٍ حانية تقدر نقاءها ورقتها وشفافيتها؛

ولكنني لم أجدْ منك إلَّا ما هو معتاد، التكلُّف والاصطناعَ والفتورَ.

ساد الصمت لبُرْهة، وقطعته قائلة بصوتٍ مكلوم: كلُّ الأفكار، والألوان لا تستطيع أن تدفع رجلًا إلى محبَّة امرأةٍ لا يميل إليها قلبُه.

قال وقد شعر بحزنها العميق: ولكنني والله العظيم أحبك.

ردَّت بأسفٍ: نعم تحبني، كزوجة وفيَّة تشاركها الحياة اليومية؛ ولكنك أبدًا لم تحبني كفتاة أحلامك، كامرأة خيالك، كعشيقة تشتاق إلى وجهها، وتطيل النظر في عينيها، هذا هو الحبُّ الذي أفتقده، ومن فرط افتقادي له كرهته، وكرهت نفسي التي تتمنّاه، ودخلت حجرتها تبحث

عن نومٍ ينهي تعاسةَ ليلتها، وقد تركت زوجها مذهولًا مخنوقًا في الخارج، مستاءً منها، مستاء من نفسه، ولم يجد ما يفرغ فيه غضبه وحيرته سوى هذه البالونات المتناثرة، فأقبل عليها فرقعة وركلًا!

طِفْلَةٌ فِي الْأَرْبَعِينَ

تصببَتْ عرقًا، وبدأت تشعر بأنها تودُّ مغادرة صالون التجميل، بعد أن سألتها مصفِّفَة الشعر للمرة الثانية أيَّ لونٍ اختارت من الكتالوج، شعرت بالحيرة مجدَّدًا، وازداد ضيقها، وهي تسترجع البحث، والسؤال، وطول التفكير الذي أرَّقَها على مدار شهرين لتقرِّرَ أن تصبِغَ شعرها، وتختار لونًا جميلًا مناسبًا، وقالت لنفسها: «لم يفلح بحثي وتفكيري، فها أنا أحتار من جديد وقت اتِّخاذ القرار».

قامت مرتبكة لتغادر، والإحباط يعلوها، وقالت للفتاة: «أرجو المعذرة،

سآتي مرة أخرى»!

ابتسمت لها الفتاة بلطف، وقالت:

«يمكن لك أن تجربي ما تميلين إليه من الألوان، وإذا لم يعجبك، أو لم يعجب زوجك سأعدّله لكِ، لا تقلقي، فالأمر بسيط».

شعرت ببعض الهدوء، ودارت في عقلها الكلمات: «الأمر بسيطٌ، أحقًّا هو بسيط؟!».

قالت بتشكُّك: «ولكنَّ تغيير اللون أكثر من مرة ألن يؤذِيَ شعري؟ أنا أريد أن أغير لونه منذ سنين؛ ولكنْ منعني الخوف عليه».

قالت الفتاة بلهجة مطمئنة: «لن نغيّره مرتين، ستختارين اللونَ الأساسِيَّ الذي تفضّلينه، وسأعدل لك

درجته إذا أردتِ، ولا تقلقي فنحن نستخدم صبغاتٍ خاليةً من الأمونيا»، وأردفت: «لَدَيّ زبونات يصبغنَ شعورهنّ بشكلٍ دائم، ولا يؤدّي الأمر لأذى الشعر؛ لأنهن يعتنين بها، ويستخدمن خاماتٍ جيّدةً»، وختمت حيرة زبونتها بقولها: «هيّا لنْ نستغرقَ طويلًا، وستسعدين بالنتيجة إن شاء الله».

وبالفعل كانت النتيجة مُرْضِيةً، سعدت بالتغيير، وبدتْ أصغرَ وأجملَ، لم تصدق أنها أخيرًا فعلتها، وتصوَّرت أنها في وقت مزدحم داخل هذا الصالون، لم يكن ليبالي بتردُّدها أحدٌ، ومع عاملة أقلَّ لطفًا وذكاءً كانت

ستعود بإحباطها؛ ليزداد إيمانها بعجزها عن اتّخاذ أبسط القرارات.

استقبلها أبناؤها بحفاوةٍ وعباراتِ ثناءٍ وإعجابٍ، لم يخرج زوجها عن صمته العنيد، ولكن يكفيها أنه لم يباغتها بنقدِهِ اللّاذع أو سخريته، وعثرت في عينيه على استحسانٍ نادر، كانت هي راضية عن نفسها، سعيدة بأنها نفّذت القرار أكثر من سعادتها باللون الجديد.

دخلت فراشها بمشاعرَ فرحةٍ قليلًا ما عاشتها، أغمضت عينيها، فرأت فتاة مقيّدة اليدين، وتسير في متاهة، كانت تشعر بالحيرة أيّ طريق تختار، أكثر من ضيقها بالقيد في يديها، فتحت عينيها، نعم هذا هو حالها،

الحياة بالنسبة لها متاهة كبرى، تتمنّى دومًا لو يختار الناس لها، لو لم يكن هناك خياراتٌ من الأساس، وإن كانت أكثر معلومات، وأكثر خبرة، وإن كانت خيارات الآخرين لها كثيرًا ما أتعبتها.

لكنه القيد في يديها، والغشاوة على عينيها، يمنعانها من الثقة باتّجاهاتها، وإيمانها بالقدرة على تغيير المسار، إنه قيد المثالية، ووهم الكمال، وغشاوة الخوف من الندم.

سقطت دمعة ساخنة على خدها، ها أنا ذي وصلت للأربعين، ولو أنني قضيت عشر معشار ما أمضيته في صراعات مع عقلي، وبحثي وتساؤلاتي في كل الأمور في عمل

واحد، أو دراسة، أو حرفة لكنت حققت شيئًا يَسُرّ نفسي.

وفي لحظة مصارحة مع النفس، تذكّرت كم كانت في بداية طفولتها طفلة مندفعة وجريئة! وتوالت على عقلها مشاهد إيقافها عن الأعمال التي قررت البدء فيها، وزعزعة خياراتها على مدار حياتها، كانوا يخافون عليها، ويريدون لها الأفضل، ويخشون من جرأتها، فوقعت في متاهة الحيرة، والبحث عن قرار بلا خطأ، وحياة لا تعرف الفشل، فتجمَّدتْ! ومع شريك حياة يسبق إلى لسانه النقد، ويتفنَّن في استخراج العيوب، رغم طيبة قلبه ومساندته، فقد ذابت قدرتها على اتخاذ قرار حاسم،

وأمضت شطر عمرها في أحلام مؤجَّلةٍ، وشكٍّ لا ينتهي.

لم يقطع حبل تفكيرها إلّا صوت أذان الفجر، بعد أن صلَت، تناولت فطورها، وارتدت ملابسها، وانتظرت ارتفاع الشمس، وفاجأت صديقتها في مكتبها، والتي تعجبت من نشاطها وزيارتها المفاجئة، وازداد عجبها وسعادتها عندما أخبرتها أنها مستعدَّة لمشاركتها في مشروع حضانة الأطفال الذي طالما حاولت إقناعها به.

في طريق عودتها، شعرت بضغط نفسيٍّ، وهجومٍ مباغتٍ للحيرة واللوم، وبدأت المخاطر التي طالما كبَّلتها تتوالى أمامها، أغمضت عينيها،

وقالت: «الأمر بسيط، والخطأ قابل للإصلاح، وماذا لو فشلت، لن تنتهي الدنيا!».

دُهش أبناؤها وزوجها من التغيُّر المفاجئ، لم تعذ تسألهم عشرات الأسئلة لتتأكد مما يريدون ويفضلون، كانت تختار وتقرِّر، وإذا اعترض أحدٌ، أجابَتْه مبتسمةً بأن المرة القادمة ستكون أفضل، أرسل لها ابنها الأكبر عل هاتفها جملة أعجبتها، وزادتها حبًّا في حياتها الجديدة:

حكمة أعجبتني: «ستندم بعد عشرين عامًا، وتشعر بخيبةِ أملٍ كبيرةٍ ندمًا على ما لم تفعله، وليس على ما فعلته».

الأَقطابُ المُختَلِفَةُ

هو: يبني الأسوار، يبنيها عالية صلبة، فيغمره الأمان في الداخل بأن أحدًا لن يتلصَّص على حياته، أو يشوِّش أفكاره، أو يقحمه فيما لا يعنيه، وما لا يعنيه كان أغلب هذه الحياة، هو يعرف ما يريد، والأهم أنه يعرف ما لا يريد، إنه لا يريد التغيير ولا التجريب، تزدهر روحه بين مألوفاته، ويستمتع بمشاهدة الحياة عن بُعد أحيانًا، عبر فيلم، وثائقي، رواية، بوست على السوشيال ميديا، يشاهدها من وراء جُدر آمنًا مطمئنًا، ولا تثير فيه المشاهدة روح المحاكاة؛ بل تزيده التصاقًا بموضع قدميه.

أما أنا: فعلى الضفة الأخرى تخنقني الحدود، وتتلف روحي في التكرار، لا أرى قيمة لقصة في الظلام، ولا متعة في العزلة، لو لم تُتناقل الحكاية فكأنها لم تكن، ولو لم يختلط الناس لمات كلٌّ منهم في سجن عقله المملَ، أحب الناس، ولا أراهم وحوشًا محتملة، ومهما لاقيت من عناء، فلا أفقد الأمل في مقابلة الأسوياء المبهجين الذين تحلو بهم الحياة.

وقد تزوجنا، قررنا بكامل قوانا العقلية أن نتشارك الرحلة، من المؤكد أننا لم نكن مدركين لحجم التناقض بيننا، ظنناه اختلافًا لذيذًا يثير الشغف، ولا يفسد للودِّ قضية، وقد كان الودُّ كبيرًا، والانجذاب عارمًا، ألم

يقولوا إن الأقطاب المختلفة تتجاذب؟ وقد كنا قطبين مختلفين تمامًا، على مؤشر مايرز بريجز مثلا، أنا ESTP منفتحة حسية عقلانية متساهلة، أعشق المغامرة وأحب الحركة، وأتمتع بمهارات اجتماعية عالية، وحماسية إلى حدٍّ الجنون، وهو INFJ انطوائي حدسي عاطفي صارم، هادىء ومتحفظ وشديد الحساسية، حنون وساعٍ للكمال.

كان الدخول إلى عالم هذا الفيلسوف المتفرد مغامرة بالنسبة لي، وكنت أنا بالنسبة له كفيلم مغامرات يشاهده باستمتاع، كان كلٌّ منا يمثل للآخر الجانب المعتم الذي لا يعرف عنه شيء، تذهلني دقة ملاحظته

للمشاعر، وقراءته للأفكار، وترتفع هرمونات سعادته عندما أحمل الجنون إليه، وأهديه المغامرة على مقاسه، عاطفيته وحماسي أعميانا عن إدراك الحقيقة، والحقيقة كانت أن الاختلاف صارخ، وأنه ليس كلُّ اختلاف مكمِّلًا، قد يكون محطمًا.

ربما كنا مثاليين لإكمال فريق عمل، بشرط وجود قيادة في المنتصف تستفيد منا، ولا تحوجنا للنقاش والتوصل لقرار سويًا، أما أن نكون زوجين، أن يكون على كل منا أن يشارك الآخر همومه، ويحترم وجهته في النظر إلى الأمور، ونربي سويًا أطفالا أسوياء، ونتخذ قرارات مصيرية، ونشكل كيانًا اجتماعيًا

واحدًا، والأصعب أن نتشارك تفاصيل الحياة اليومية، فكانت هذه مهمة مستحيلة؛ ولكننا تقبلنا القدر بشجاعة، وتوصلنا بعد سنين إلى تسوية اضطرارية ولو إلى حين.

بنود التسوية: من بنود هذه التسوية غير المكتوبة ألا أدعوه إلى حدث اجتماعي مهما كانت أهمية أشخاصه بالنسبة لي، وألَّا أشعره بالذنب لغيابه عن العزائم والحفلات وتجمعات الأهل في الأعياد، وألَّا أعرفه على أشخاص جدد، لأحكي له عنهم كما شئت، وأستشيره بلا حدود، ولكنّ لا أضطره إلى تعارف.

كما كان على صوتي أن ينخفض كثيرًا، علوُّ صوتي غير مقبول مهما

كانت الأسباب، حتى ولو كان فرحًا أو حماسًا، فضلًا عن أن يكون غضبًا واستياءً.

وكان عليَّ أن أفكر كثيرًا قبل أن أعبِّرَ عمَّا في نفسي، وأختار كلماتي بعناية، فكل كلمة محسوبة، وقد تطعنه كلمة لم أقصدها، أو قصدت منها الخير.

وكان عليَّ بحكم الواقع أن أحطِّمَ سقفَ آمالي فيما يتعلق بأحداثنا الأسرية، ونشاطاتنا مع الأطفال، وأحترم بيتوتيته وقلة حيويته.

وفي المقابل كان عليه أن يفك أسري، ويرضخ لكوني اجتماعية حركية، وأنني سأصطحب الأطفال إلى أماكن من وجهة نظره غير مثالية

أو آمنة، كالملاهي والسفاري، وأنني لن أفضل دومًا البقاء في البيت ومشاهدة التلفاز، وأنني سألبي الدعوات الاجتماعية اللطيفة بالنسبة لي، وأن لدي مئات الأصدقاء والمعارف، وأنني سأغير عملي وأنشطتي وقتما أشاء وبدون طول تفكير، وأن عليه ألّا يشعرني بالذنب، أو يحتقر أيًا من هذا.

ما زلنا متشبثين باحترامنا لنقطة الوسط الصعبة، لأجل أطفالنا، ولأجل الوُدّ القديم، ولكن ليس في هذه النقطة أي معنى للزواج، لا حبّ ولا إشباعَ، ولا أمانَ ولا فرحة، فقط نقضي الوقت بأقل الخسائر، وكل

واحد يسدّد فواتيره النفسية بعيدًا عن التاني.

الأقطاب المختلفة مبتتجاذبش في العلاقات، هنا فيه قاعدة تانية: «ما تعارف منها ائتلف، وما تناكر منها اختلف».

يعني بتحبّ اللّي شبهك، اللّي عامل زيّك.

الاختلاف اللذيذ الثري المتكامل بيكون على الهامش، أو في بعض الأجزاء، بشرط ألّا يطال المباديء، ولا الروح، ولا الإحساس بالحياة.

الثلج مبيفرحش تحت الشمس الساطعة، بيدوب ويتلاشى، مبيبقاش له وجود؛ لكنه في القطب الشمالي

بيفضل تلج، وبيفرح الأطفال، وفيه سمك وكائنات بتعيش تحته.

والشمس مبتحسّش بالانتصار لما تدوبه، ممكن تكره نفسها؛ لأنها لما بتتعامل مع الرمل والبحر بتبقى حلوة ومناسبة وبتفرح.

مش معنى إنك انجذبت لحدّ في وقت من حياتك، في سلوك أو طريقة، وحسيت ساعتها إن مفيش حاجة تانية مهمة إن الوضع ده هيستمر، لو انتو مش شبه بعض، ولو فيه كائنات محتاجاكم إنتم الاتنين، فالشمس هتحاول متبقاش شمس، هتحاول تطفي وتضلم وتبرد، والتلج هيحاول يجمد قدامها.

مَقْبَرَةُ الإِبَاحِيَة

اللهفة التي كان فيها «كريم» في فترة الخطوبة جعلتني أتخيَّل حياة زوجية مليئة بالقرب والاهتمام، وشهر عسل أسطوري، كان يرجوني بشِدَة، ويلحُ بكلّ طريقة كي أرسل له صورًا خاصة، لدرجة أثارت الريبة بداخلي، فرفضت، فألحَّ عليَّ مجددًا أن أصوِّرَ نفسي بشكلٍ مُغرٍ، ولا أرسل له الصور، وإنما أجعله يراها من على هاتفي فقط، وهو سيحتفظ بها في قلبه كما قال.

لا أنسى كلماته عندما قال لي: (بعد شهور ستصبحين زوجتي، فلماذا

تبخلين عليّ «بتصبيرة» حتى هذا اليوم الموعود).

ولكن اليوم الموعود جاء غريبًا ومخيّبًا للآمال، ورغم انعدام خبرتي، ورغم كونه أول رجل يقتحم قلبي وحياتي، ولكنني شعرت بكثير من الغرابة، سرعان ما بدأت رغبته تفتر، ومرات لقائنا الحميم تتباعد، كان ينعزل في غرفة أخرى لساعات مع اللاب توب بذريعة أنه يقوم بأبحاث مهمة متعلقة بالعمل.

كان لطيفًا مهذبًا حنونًا، لا يرفض لي طلبًا؛ ولكنه كان منطفئًا في السرير، وكأنه يؤدّي واجبًا مُرهقًا، لا شغف قبل، ولا إشباع بعد، ولا انجراف فيما بينهما، عزلة في غرفته

قبل وبعد، مما أثار شكوكي حول نفسي، فسألته بشكل مباشر: هل يضايقك مني شيء؟

فأجاب بالنفي القاطع، وأبدى ضيقه من السؤال، وقال لي ألا أفكر هكذا مرة أخرى، ولا أسأله مجدّدًا عن هذه الأمور، فهو يحبني، ومع الوقت سنسعد أكثر.

ولكنّ شكّيَ في نفسي لم يهدأ، لُمت نفسي على ما ظهر لي كتغيير في رغبته فِيَّ، بدأت أبحث بجدية، وأراسل المواقع الطبية، وأكثر من مستشار زوجي على الإنترنت، وأترجم المقالات المطولة، ولكن النتائج المذهلة لم تأتِني من هذا كله؛ بل فجعتني، وأنا أبحث في

«الهيستوري» عن موقع تاه مني، رأيت ما لم يخطر ببالي يومًا، وسيظل هذا اليوم فارقًا في حياتي، فما زلت بعد عشر سنين أعاني من اضطراب ما بعد صدمته.

كنت أسمع عن المواقع والقنوات الإباحية؛ ولكن ليس مَنْ سمع كمَنْ رأى، ولا من رأي كمن سقط فيها وأدمنها.

الآن فهمت، هو لا يقيم معي علاقة إلَّا بعد أن يدخلها، ويسرع إليها بعد انتهاء لقائنا الروتيني ليرتاح، لقد تشكلت خارطته الجنسية على الصور، فلا تشعله وتطفئه إلَّا هي، ولهذا كان يلحُّ في رؤية صوري، ليس شوقًا إلَيَّ؛ ولكن لأنه رغب أن يراني، فلم يكن

يراني وأنا حية أمامه، اعتاد أن يُثار من وراء شاشة.

كتمت صدمتي، وخشيت أن أواجهه، ولكن النار اضطرمت في قلبي الساذج، وبدأت أرى ما لم أكن أراه، وأشعر به وهو نائم إلى جانبي؛ ولكنه يدفن نفسه في مقبرة الإباحية اللعينة عبر شاشة هاتفه الغبي، وهل أغبى من قطعة حديد تمنع شابًا من الاستمتاع بامرأة حقيقية، وعلاقة كاملة متبادلة، وكأنه مراهق محروم يتعذب بما لا يقدر عليه.

وحاولت الكتمان، ولكنني فشلت، انفجرت في أحد الأيام وواجهته، فخجل وبكى، وقبل يدي وتوسل أن أسامحه، فبكيت أنا أيضًا: «ألم ترني

قبل الزواج؟ ألم تحبني؟ هل هناك ما يضايقك فِيَّ؟ أخبرني وسوف أحلّ الأمر مهما كان».

فزاد بكاؤه وقال لي: «أنت ملكة جمال، وفاتنة الأنوثة، وأنا أكره هذا الأمر، وأكره نفسي عندما أنغمس فيه، فساعديني وسامحيني، وأعدك أنها ستكون آخر مرة».

هذه هي المرحلة الأولى في دورة حياة مدمن الإباحية، الخجل والندم والوعود.

وبالفعل، سامحت وتفهمت، وصدقت الوعد؛ ولكن وعد المدمن منقوش على الماء، بعد أسبوع عاد، فغضبت وندم، ثم عاد، فغضبت وندم بشكلٍ أقلَ، ثم عاد فأهنته بشكل بالغ،

فقاوم وتبلّد وقال لي: «لا تفتشي ورائي، أنا حرٌّ وإن كان عاجبك»!

وهذه هي المرحلة الثانية في دورة حياة مدمن الإباحية، التبلد والتناحة.

كان عليَّ أن أصعِّدَ ردَّ فعلي، ففعلت هذا بشكل تلقائي، هرولت إلى غرفتي وأمسكت بالموس وأنا في وعي مختل، وخلعت ملابسي وبدأت أجرح جسمي، دخل علي مذعورًا، فقلت له بجنون: «ابتعد حتى لا أقتل نفسي، لقد فشلت أن أكفيك، تتركني وأن بين يديك لتشاهد أخريات، أنا أكره جسمي هذا الذي لم يعجبك.

كان الدم يسيل مني، وهو ساقط على الأرض أمامي يُقسم بكل الأيمان

أنه لا يعود، وأن ظفري أغلى من كلّ هذه المواقع وما فيها.

ولأن زوجي كان مدمنًا ومنذ مراهقته الأولى، فقد كان انهيار زواجنا هو الاحتمال الغالب، ولكن رحمة الله سقطت على بيتنا فأنقذته، مع كثير من الجهد والعناء.

ضمد جروحي وهدأت في حضنه كالطفل الصغير.

«أنت لست في منافسة مع أحد، ولم أفضل مخلوقًا عليك، هذه صناعة مدمرة، تشوه الدماغ، وتعيد تشكيل الإحساس الجنسي ليظل يلاحق الجديد والغريب والأشد ابتذالا، هل ستنافسين صناعة يُنفق عليها المليارات؟».

«إذًا، لا يوجد حلّ، أستسلم للصناعة المدمرة؟».

«لم أقلْ هذا؛ ولكن لا تلومي نفسك أرجوك، أنا المريض».

«هل تريد العلاج يا مريض، أم تريد الراحة من ضغطي، حدِّدْ بصدق أرجوك».

سكت، فأعدت السؤال: «الأحسن بالنسبة لك أن تُشفى، أم أن أحلّ عن دماغك وتتقن الاختباء مني، قرر الآن، هل أنا مشكلتك، أم إدمان الإباحية؟».

أجاب بحزنٍ بالغ: «بالطبع هذا الإدمان هو مشكلتي، أستقذر نفسي، وتنهار حياتي كلها، يهلك عقلي

وجسدي وروحي ولم يعد هناك أي استمتاع، قهر العادة فحسب».

«إذًا، لن تكفي الوعود، لا بُدّ من إجراءاتٍ حاسمة، وإلّا فإنني لن أكمل معك، ولن يُرَبّى صغيرُنا مع أبٍ مدمنٍ».

وفي علاج الإدمان لا يوجد سحر، وإنما إرادة ومساندة وإجراءات عملية، انتكاسة محتملة وإرادة أقوى.

غيرت بحثي وسؤالي، ومراسلاتي من تنشيط الرومانسية، وزيادة الحميمية إلى علاج إدمان الإباحية، ولو لم تكن إرادته ذاتية لما شُفي، ولو هددته ألف مرة.

ذهبنا سويًا إلى معالج نفسي، أعدّ برنامجًا علاجيًا متكاملًا، لم يكن الأمر

سهلًا، عشرات المعارك، وعشرات الانتكاسات؛ ولكن الأمر تم.

أنهينا العزلة من حياتنا، لا غرف مغلقة، ولا هاتفَ في الظلام.

وضعنا برنامجَ حمايةٍ عمليًا، لا يمكن التحايل عليه، هو ليس حلًّا جذريًا، ولكن «ما لا يدرك كُلّه لا يترك جُلُّه».

طورنا علاقتنا الخاصة، بالكثير من الابتكار، والخيال، والصور، والمرايا والألعاب.

تشبثت باحترامه، مهما انتكس، ومهما صُدمت، كان قراري ألَّا أقلل احترامه أبدًا، احترامه لنفسه هو حجر الزاوية في طريقه للتعافي، يجب أن يظلَّ كبيرًا في عيني،

فخففت عن نفسي عبءَ المراقبة، أغضب أحيانًا، أحزن، وأواجه، ولكن لا أهين.

الدعاء وتقوية المراقبة الدينية كانت أمرًا مهمًا، بعكس لعبة الشيطان، فالشيطان يسهل الوقوع، ثم يُصعب الإفاقة، فالشعور بالذنب والقرف المفترض أن يكون رادعًا، يأتي بعد الوقوع محبطًا ومُبعدًا، ببساطة بعد الوقوع استغفار وإتباع بعمل صالح قوي.

الانشغال، فالفراغ من الأهداف والأعمال مصدر الخطايا، والتخبُّط، لا يكفي العمل الروتيني؛ لذا فإنني دعمت صداقاته، وخروجه، وهواياته، كانت كلها مصادر للعافية، نعم لم يكن

بقدرتي أن أحارب صناعة، ولا من المنطقي أن أقارن نفسي بجحيم من الصور والأفلام التي يقف وراءها فرق عمل كاملة؛ ولكن لم يكن باستطاعتي أن أسلم حياتي لهذه المقبرة، وأُعيش مع ظل إنسان تعيس مشوَّه، ولا أن يربى أبنائي مع أب مُثقل بإدمانه، وانتصرنا، وتعافى، كانت رحلة صعبة ولكن الوصول لم يكن مستحيلًا.

ثالثًا: اللقطات

لستُ سلعةً وليستِ الحياةُ سوقَ نِخَاسةٍ

جلست ثلاث سيدات من جنسية عربية أمام هذا الشاطئ المتوسطيّ البديع يراقبن أولادهن، وأزواجهن وهم يلعبون ويسبحون.

فوقهن ثلاث شمسيات متعانقة، وعلى رؤوسهن قبعات كبيرة ربما هي أكبر قبعات رأيتها في حياتي! كان الوقت باكرًا جِدًّا، والشمس في غاية الحنان، والبحر رائقٌ وهادئٌ، رماله البيضاء الساحرة تشفي، وتغري مياهه حتى مَنْ لديه فوبيا من الماء أن يحاول.

لم يكن بهنّ تعب، ولا زهد في متعة السباحة، ولا حتى منحى فقهي، كانت العلة هي الخوف من الإسمرار!

غطين الكفوف بقفازات، وتناوبن وضع كريمات الوقاية، ولم يخلعن أحذيتهن الرياضية، وفي طريقي للبحر سمعت إحداهن توصي بالعودة للبيت قبل التاسعة صباحًا؛ لأن الشمس بعدها لن يجدي معها شيء.

غمرني مزيج السلام والبهجة مستلقية فوق الماء، وشعرت بمحبّة تجاه الشمس! وامتنان لخالقها.

لا يكفي أن تكون هنا لتستمتع، يجب أن تكون حُرًّا أوّلًا، إذا كان رأس مالك لونًا ترتاع أن يتغير درجة أو درجتين لبعض الوقت، فأنت أسير.

أيّة متعة أن تراقب خائفًا منظرًا بديعًا يستمتع به غيرك وأنت محروم! فقط لأنهم أوهموك أنك هزيل، وبلا قيمة في هذا العالم إلى الحدّ الذي يجعل الخوف من الإسمرار مانعًا من القفز والغطس، واسترداد الطفولة للحظات تعينك على درب الحياة المُجْهد.

بعدها بعام تقريبًا على أحد شواطيء أرض الفيروز، كانت إحدى السائحات الأوكرانيات تعطي ظهرها للبحر متمدّدة في مواجهة المسبح، فهي تدور مع الشمس! تغرق جسمها بكميات وفيرة من مستحضر التسمير، وقد نجحت مساعيها، حيث اكتسبت سمرة لاتينية ظاهرة، وينبئك ما تبقّى

من لون جلدها الأصلي شديد البياض عن مثابرتها الشديدة لتصل إلى هذه الدرجة بمساعدة المركبات التي تحمي جلدها شبه الخالي من الميلانين أن يحترق.

وكأنها هنا في مهمة رسمية أن تتخلّص من بياضها المزعج قليل الجاذبية، حسب ما أوهمها إلحاح الميديا المتصاعد، حتى خشيت عليها بعد 3 أيام من هذا الجهد المضني أن تصاب بسرطان الجلد.

حب الجمال، والنشأة في الحِلْية، والاهتمام لا شيء فيه يدفع لخسارة بهجة الأيام، والشعور بضغط تعيس لإرضاء مجتمع أخرق.

تعاني فتيات كثيرات حول العالم من مرض فقدان الشهية العصبي «الأنوركسيا» بسبب هوس النحافة، وتصدير صور النحيفات المعدلة، وربطها بالجمال والسعادة.

وفي بعض كتب الفقه القديمة أنه لا يجوز للأهل إجبار فتياتهن على الإفطار في صوم النفل خشية إصابتهن بالنحافة!

عناية المرأة بجمالها متعة، ما دامت محتفظة بقيمتها أعلى، وحريتها أولى، ثقتها حجر الأساس، فإذا ما رضخت أن تكون سلعة، ويطربها أن تمدح كدمية، فهي أسيرة، يطاردها مشرط جراح تجميل، وصور متلاحقة متناقضة.

تحرّري، فرأيه لا يصنعك، نظرته لا تزيدك، تعليقاتهم لا تهمُّك.

مدام سعاد بتاعة الفيش والعامرية

بعد ما جابت العيال من المدرسة، وحدفتهم في البيت! نزلت السوق بسرعة تجيب شوية خضار، البيّاع شخط فيها عشان قلبت في الطماطم، كسلت تردّ عليه خاصة إن فيه سلاح أبيض في إيده! وأساسًا مفيش حكومة هوّا شخصِيًا الحكومة.

رجعت جري يَدُوب قلعت الطرحة، وعملت الأكل قبل ما تغيّر هدومها، جوزها رجع من الشغل مقالش سلامو عليكم، مع إنها قالت له 6 آلاف مرة إنه لو ألقى السلام هياخد ثواب، وهيًا

مش هتفهمه غلط، ولا هتفتكر إن ده معناه إنه مستعد يتكلم أو يتهبَب!

بعد ما اتغدَوا، وعملتله الشاي، دخل ينام، قالت له: استنّى، الراجل اللّي هيصلّح السخان جاي عشان تقف معاه دي تالت مرة يصلحه ويبوظ تاني!

بصلها من فوق لتحت وقالها: أقف معاه ليه يعني؟ صديق عمري وفي زنقة هههههه! ما تقفي ياختي معاه إنتي، أنا مبعرفش أتكلم مع الصنايعية!

«ماشي يا ابن البشاوات»، أسَرَّتْها في نفسها، ولم تبدِها له؛ خوفًا من براعته في البذاءة والتجاهل، ورمي الدبش.

بعد ما صحي، قالت له: ممكن تيجي معايا نزور أبويا وأمي، أبويا تعبان جدًا، تعالى معايا ربنا يكرمك هيفرحوا بيك.

لا ألف سلامة على أبوكي، روحي إنتي وخدي راحتك، وخدي العيال يشوفوا جدهم، ولو عايزة تباتي باتي برضه، أنا راجل ابن أصول، هاتغدَى بكرة أيّ حاجة ولا يهمك.

وهيَّا بتشدّ العيال وراها فجأة حسّت ببركان داخلي المفروض إنه خامل من سنين، استغربت نفسها جِدًّا، إيه ده هو أنا لسه عندي دم، لا حول ولا قوة إلّا بالله، طب إزاي!

يخرب بيتك لبيت خطيبك يا شيخة! أتاري الواد المنيّل أبو شعر

ناعم خطيب البت الرخمة المفعوصة بنت الجيران بيسمعها أغنية في بير السلم:

أيا داعيًا بذِكْرِ العامريّة أنني.
أغار عليها من فم المتكلم.
أغار عليها من ثيابها.
إذا لبستها فوق جسمٍ منعَّمِ.
أغار عليها من أبيها وأمها.
إذا حدثاها بالكلام المغمغمِ
وأحسد كاسات تقبّلن ثغرها.
إذا وضعتها موضع اللثم في الفمِ.

في اللحظة دي قررت إنها مش عايزة تشوف أبوها وأمها.

راحت، ملت جردل مية مولعة بسرعة ودلقته على بنت الجيران وخطيبها مصحوبة بعبارة: «خلّي العمارة تنضف».

لمعت عيناها وهي تتجه إلى غرفة أبو كرش، أمسكت في طريقها بأكبر حلة لديها، خبطته على رأسه راجية أن تكون نومته هذه المرة أبدية.

في صباح اليوم التالي قررت أن تذل جميع القادمين ليستخرجوا «فيش» ورق يكشف الحالة الجنائية للشخص ويقدم لجهات العمل فأخبرتهم إن السيستم واقع، وظلت تلقنهم دروسًا في الأخلاق وتتهكم عليهم.

وما زال بحثها عن العامرية بنت الكلب جاريًا!

بين الكيميا والتاريخ

هي: مالك؟

هو: مش قادر أنسى ردّ فعلك لمّا عِرفتي إنه عمل حادثة، لهفة عنيكي، صوتك، جنونك، قلبي اتكسر.

هو ده اللّي بتقولي طفاكي وضاع عمرك معاه؟ ده أنا لو عاوز أوصف الحب مش هلاقي أبلغ من كده.

هي: مش حقيقي!

هو: إيه اللّي مش حقيقي؟ ده أنا شفت بعيني، حبّتيه ولسه بتحبّيه.

هي: مش بحبه، وأكبر دليل تعاستي معاه، وإني سِبْته في نُصّ

الطريق.

هو: لو مكانش اللّي شفته منك ده حب، يبقى اسمه إيه فهِّميني.

هي: مش بحبه هو لا!

لكن مهما عشت، وحبيت وقاومت حسرتي على السنين وبدأت من جديد، مقدرش أنسى 20 سنة من عمري، بحبّ نفسي اللي كانت بتعافر معاه، بحبّ زهرة أيامي، شبابي «وعد غد وبراعم زنبق»، بحبّ نفسي اللّي كانت بتحب الحب، وبتتنفسه زي الهوا، وبتنحته في الصخر، بحبّ أول كلّ حاجة عشتها معاه، حتى لو نغّص فرحتها كلّ الفروق بينّا والجفا.

بحبّ الناس اللّي اتوجدوا من لقايا معاه، نبض قلبي اللّي عايش، ولادي.

وبحبّ اللّي راحوا، وخدوا من روحي معاهم، وكانت إيدي فإيده وإحنا بنودعهم، بكاه فحضني يوم فراق أبوه وأمه، وضهري اللّي اتسند عليه وأنا بودّع حبايبي.

هو: هوَّا كل ده؟ أمَّال أنا أبقى إيه؟

هي: أنت الحلم اللّي جه متأخر! الفرحة اللّي نفخت الروح في قلب همدان من كتر الوجع، الحب اللّي مش بينسّيني في كلّ نبضة أتحسّر على عمر فات، طلعت عيني وروحي فيه عشان أعيش حاجات في عمري معاك بتِحصل وقت الزعل!

إنت الكيميا وهوَّا التاريخ.

فريند زوون

فيه ناس مبتلاقيش شغل، وبتقدم في وظائف كتير وتترفض، مش علشان ناقصهم شهادات، أو خبرة أو كفاءة، بالعكس، بيترفضوا عشان همَّا مؤهلين أكتر من اللَّازم أو overqualified.

أنا تمّيت الـ 30 من شهر، جميلة وأنيقة، وذكية، ومثقفة، ومرحة، وأشارك في الأثاث، وأقدّس الحياة الزوجية؛ ولكن لم «يكراش» على أحد.

أنا مش متأكدة إن كنت عاوزة أتجوز ولّا لأ، في الحقيقة اختيار

الزواج مقلق بالنسبة لي، أنا مستقلة من سنين، صحفية، ومراسلة، ومخرجة أفلام وثائقية، عايشة لوحدي، وبسافر لأهلي كلّ شهر زيارة، رغم رومانسيتي الدفينة؛ لكن مش بتخيّل نفسي في زواج تقليدي، ولا محدّدة تصوّر للزواج غير التقليدي، أو إيه اللّي يناسبني؛ لكن الأكيد إني وصلت لنقطة في عمري، ونضجي الفكري، والعاطفي والمهني غير قابلة للتصفير، يعني مش هينفع عشان أتجوّز ألغي اللّي فات، وابتدي من أول وجديد كفتاة مستعدة «للتستيت» وتسلّط شخص على خياراتها، وتحكمه في أنفاسها، وتسخيرها لتدليله، وإطعامه وكيّ

قمصانه، وغسل شراباته وتحمل رخامات أمه حرفِيًا وليس سبابًا يعني الرجل الشرقي البيور ده مش هينفعني، ولا هنفعه، ممكن يعجب بي سِرًا؛ لكن الأكيد إننا مهما كان الانجذاب هنحط بعض في «الفريند زوون»، عشان كده تخيّلت كتير إني هتجوز واحد تقفيل بلاد برّة، وبحكم سفري وشغلي كان فيه احتكاك قابل للتطوُّر؛ ولكنه لم يتطوّر، فتطوُّري المكتسب لم يلغِ أصالة صعيدية غير قابلة للمَحْوِ، الحب قبل الجواز عندي له حدود، ومفيش نهاية مقبولة لعلاقة بين رجل وامرأة عِدْلَة على إيد مأذون واتنين شهود، «واتمختري يا حلوة يا زينة»، ولا زال الرجل في

وجداني بنكهة الحامي واهب الأمان المتفوق على ظل الحيطة، فلم يملأ الرجل الغربي قلبي وعيني، وإن كان بحسابات العقل مناسبًا.

يراودني الحلم كلّ حين بأنني سألتقي بذلك الشرقي ذي الروح الغربية، الذي أشعر معه بأمان لا يخنق، وسند لا يستبد، وصحبة لا نفسنة فيها، نتقاسم الحلوة والمرة ويحافظ كلٌ منا للآخر على فضائه الخاص، وإلى ذلك الموعد، فأنا أستمتع وأكابد كـ«سترونج إندبندنت وومن».

بُحَيْرَةُ الزَّنِّ

أصعبُ شيءٍ في الأمومة بالنسبة لي هو «الزَّنّ»، لك أن تتخيَّل أن يكون عملك فكريًا كتابيًّا، وأنت تعيش في بحيرة من الزَّنّ المستمرّ، زن بكل المقاسات والألوان، زنّ سادة بيور، بدون سبب سواء مباشر، أو غير مباشر، زنّ منقّط بمشاجرات وتبادل اتهامات وشكاوى، فتتحمَّل فوق عناء الزَّنّ أن تكون قاضيَ العيال الذي اشتكى نفسه، زنّ فسكوز، وده إنك تبقى مضطر تسمع زنّ مختلف في نفس الوقت، وبالتزامن مع لحظة تحتاج قمة الهدوء وعدم الفَصَلَان،

زي إنك تكون بتترجم مثلًا، أو بتكتب، أو بتتخانق مع جوزك، أو بتتصالحو.

كنت الصغرى لأخٍ وحيد، هكذا اكتفت أمي الحبيبة بأسرة صغيرة، أسرة سعيدة، نغوص في سكون وتركيز رائعين، ونتبادل الحوارات بدون مقاطعات، اعتدنا أن نفصل جرس الباب، ونشيل فيشة التليفون إلّا لما نحب، وغالبا مبنحبش!

ثم ها أنا ذي قد أنجبت أربعة، وعشت كل ما لم أختبره في زماني الأول، ولكن هذا الزَّنّ الذي فتك بأعصابي كثيرًا، هو ذاته الذي أنقذني، طالما خبّأتُ نفسي وسط ضجيجهم هربًا من ضجيج عقلي، وألهاني أنينهم

عن أنين روحي، ثم إنه من بين هذه الضوضاء المستمرة تخرج أجمل الضحكات، والإبداعات، وتستطيع أن تكون أبلهَ كما يحلو لك ودون رقيب، فتقفز وتلعب وتحكي وتحاكي وتصرخ وتبكي وتضحك وتئِنّ أنت أيضًا.

الأمومة كما وصفتها إليزابيث جيلبرت كالوشم على الوجه، نعم، تعيد تعريفك، وتعيد تشكيل كلَّ شيء في حياتك، وقد تعيقك عن كثير من المُتَع والنجاحات؛ ولكنها في النهاية أصدق، وأجمل، وأصعب، وأبقى ما في هذه الحياة.

هجماتُ الجسمِ الزجاجِيّ

من خمس سنين بدأت أشوف في عنيّا فلاشات، وفلوترز بشكل مستمرّ ومُفزع، رحت لدكتور منزوع الذكاء، روّع قلبي بكلمات منتقاة من صندوق الغشم:

«عينك ضعيفة، شبكيتك رقيقة، عندك ثقب، ممكن تفقدي بصرك، مفيش حاجة ممكن تتعمل حتى لو عملنا ليزر للتثبيت مش مضمون!».

خرجت من عنده أحمل صغيرتي الثالثة، كنت قد ولدتها منذ شهرين فقط، وأنا أشعر أنها نهايتي.

32 عامًا متّعني الله فيها ببصري، أرى من خلف نظارتي السميكة كلّ شيءٍ 6/6، أغلب الناس لا يعرفون أني «شيش بيش»، لا يعرفون سوى أنني أتمتع بعينين جميلتين، ألوّنهما وأجمّلهما، فيزدادن سحرًا، وأنني دقيقة جِدًا في ملاحظاتي، ورؤيتي للأشياء، من وراء عدساتي اللّاصقة، أو الزجاجية، عِشت حياةً طبيعيةً لم أشعر فيها بأنّ عينيَّ ضعيفتان كما قال الطبيب الأخرق.

زلزلني الخوف، أنظر لصغيراتي، ماذا سيفعلن بعدي؟

إلى زوجي، كيف أتحمل ألّا أراه؟ وكيف أتحمّل أن أكون حِملًا عليه.

أنظر إلى مصحفي وأبكي، ربما يكون ذلك آخر عهدي بسطورك، أنظر إلى السماء، وأدعو الله باسمه النور ألَّا يذهب نور عينَيّ، وأتطلع للماضي بامتنان أن جعلني أرى كل ما رأيته، وغدًا، كم أقلقني الغد!

هجماتُ فزعٍ، أتعلّق من ورائها باسمه النور، يا نور السماوات والأرض أنا أخاف الظلام، أسألك بوجهك يا مَنْ أضاءت لوجهه الظلمات أن تحمِيَنِي من الظلام.

من طبيب لطبيب، وفحص لفحص، بين مَنْ يتاجر بخوفي، ومَنْ يهمل روعي، ومَنْ يزيد حيرتي، حتى رزقني ربي بطبيب حقيقيّ:

نعم تمرِّين بخطر شدٍّ على شبكيتك؛ ولكن كلّ شيء حتى الآن جيد، انتبهي لحركاتك، وبعد أسبوعٍ أراكِ.

هدأ البرق الذي كان يفزعني ليل نهار «الفلاشات»، وذهبت إلى الطبيب: احمدي الله، مرَّتْ.

مرَّت؟ هكذا!

كنت قد قرأت عشرات الصفحات على جوجل لأشخاصٍ من حول العالم مرُّوا بما مررت به، فزاد رهقي ورعبي، وأصبحت أحمل في قلبي مئات المخاوف، وأعرف تفاصيل طبِّيّة عن أمراض كثيرة، وهو يقول لي مرّت!

ظللت أعاني الفزع لشهور، وأذهب إليه فيقول لي: احمدي ربك.

عرفت بعدها من طبيب آخر أن الله أجرى لي تبيئًا، التصق ثقب شبكيتي الرقيقة بتليفات طبيعية أغنتني عن التدخل الجراحي، أو الليزر.

يا الله! يا ملك، يا حقُّ، يا مبين، كنت أدعوه:

يا مَنْ تمسك السماوات والأرض أن تزولا، أمسكْ شبكيّتِي، فأمسكها برحمته ووُدّه ورأفته، ولطفه، وبعدها كانت الفلاشات ولا تزال تزورني، وكلما زارتني فعلت شيئًا بعيني، شيئًا مميَّزًا، بعد هذه الزلزلة، وما أحاطني بها من لطف الله، أدركت قيمة هنا

والآن، غالبت خوفي من السباحة فيما يسمى «الغريق»، ورأيت النور تحت البحر لأول مرة، قاومت فوبياتي الكثيرة، واستمتعت بالغطس كان آيةً مُبْهرةً.

بدأت أطالع النجوم، وأتابعها، وأستمتع بشكل السحاب، وأنوِّع في عدساتي الملونة ونظاراتي، وأكحل عينَيّ بوجوه أحبَّتي، وأتملًى منهم.. من منا يعرف ما يكون في غد؛ ولكننا نعرف أن هنا والآن ما زالت لدينا الفرصة.

5 سنوات أرفلُ فيها في عافية الله وستره، نجاة عيني كلّ يوم هي محضُ عفوه وكرمه، هدّد السائل الزجاجي في عيني شبكيّتي؛ ولكنْ لِمَ

أفكر فيه دومًا؟ يوجد مثله في القلب والدماغ، وغيرهما سوائل لو زادت، أو نقصت لاختلَّ نظامنا، ما يحدث لا يعلمه إلَّا اللّٰه، وهو هو هو وحده الشافي.

والآن، غالبت خوفي من السباحة فيما يسمى «الغريق»، ورأيت النور تحت البحر لأول مرة، قاومت فوبياتي الكثيرة، واستمتعت بالغطس كان آيةً مُبهرةً.

بدأت أطالع النجوم، وأتابعها، وأستمتع بشكل السحاب، وأنوِّع في عدساتي الملونة ونظاراتي، وأكحل عينَيّ بوجوه أحبَّتي، وأتملَّى منهم.. من منا يعرف ما يكون في غد؛ ولكننا نعرف أن هنا والآن ما زالت لدينا الفرصة.

5 سنوات أرفلُ فيها في عافية الله وستره، نجاة عيني كلّ يوم هي محضُ عفوه وكرمه، هدَّد السائل الزجاجي في عيني شبكيَّتي؛ ولكنْ لِمَ

ظللت أعاني الفزع لشهور، وأذهب إليه فيقول لي: احمدي ربك.

عرفت بعدها من طبيب آخر أن الله أجرى لي ثبيتًا، التصق ثقب شبكيتي الرقيقة بتليفات طبيعية أغنتني عن التدخل الجراحي، أو الليزر.

يا الله! يا ملكُ، يا حقُّ، يا مبين، كنت أدعوه:

يا مَنْ تمسك السماوات والأرض أن تزولا، أمسكْ شبكيَتِي، فأمسكها برحمته ووُدّه ورأفته، ولطفه، وبعدها كانت الفلاشات ولا تزال تزورني، وكلما زارتني فعلت شيئًا بعيني، شيئًا مميَّزًا، بعد هذه الزلزلة، وما أحاطني بها من لطف الله، أدركت قيمة هنا

نعم تمرّين بخطر شدّ على شبكيتك؛ ولكن كلّ شيء حتى الآن جيد، انتبهي لحركاتك، وبعد أسبوعٍ أراكِ.

هدأ البرق الذي كان يفزعني ليل نهار «الفلاشات»، وذهبت إلى الطبيب: احمدي الله، مرَّتْ.

مرَّت؟ هكذا!

كنت قد قرأت عشرات الصفحات على جوجل لأشخاص من حول العالم مرُّوا بما مررت به، فزاد رهقي ورعبي، وأصبحت أحمل في قلبي مئات المخاوف، وأعرف تفاصيل طبّيّة عن أمراض كثيرة، وهو يقول لي مرّت!

أنظر إلى مصحفي وأبكي، ربما يكون ذلك آخر عهدي بسطورك، أنظر إلى السماء، وأدعو الله باسمه النور ألَّا يذهب نور عينَيّ، وأتطلع للماضي بامتنان أن جعلني أرى كل ما رأيته، وغدًا، كم أقلقني الغد!

هجماتُ فزعٍ، أتعلَّق من ورائها باسمه النور، يا نور السماوات والأرض أنا أخاف الظلام، أسألك بوجهك يا مَنْ أضاءت لوجهه الظلمات أن تحمِيَنِي من الظلام.

من طبيب لطبيب، وفحص لفحص، بين مَنْ يتاجر بخوفي، ومَنْ يهمل روعي، ومَنْ يزيد حيرتي، حتى رزقني ربي بطبيب حقيقيّ:

32 عامًا متّعني الله فيها ببصري، أرى من خلف نظارتي السميكة كلَّ شيءٍ 6/6، أغلب الناس لا يعرفون أني «شيش بيش»، لا يعرفون سوى أنني أتمتع بعينين جميلتين، ألوَّنهما وأجمّلهما، فيزدادن سحرًا، وأنني دقيقة جِدًّا في ملاحظاتي، ورؤيتي للأشياء، من وراء عدساتي اللّاصقة، أو الزجاجية، عِشت حياةً طبيعيةً لم أشعر فيها بأنَّ عينيَّ ضعيفتان كما قال الطبيب الأخرق.

زلزلني الخوف، أنظر لصغيراتي، ماذا سيفعلن بعدي؟

إلى زوجي، كيف أتحمل ألَّا أراه؟ وكيف أتحمَّل أن أكون حِمْلًا عليه.

لكل جديد وقديم وكل ما هو نادر

من كتب ومجلات ومجلدات

تابعوا دوده الكتب

T.ME/BOOK100100

FACEBOOK/BOOK100100

موقعنا

www.doda100100.blogspot.com